الثقافة الإسلامية

(٢٧)

مع العبد الصالح ذي النون (ع) في رحلة العودة إلى اللّه

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات

ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي

- ٢٧ -

*　*　*

اسم الكتاب: ....مع العبد الصالح ذي النون (ع)

المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الخامسة: .... ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م

الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة

المطبعة:........ مطبعة مجمع أهل البيت ^ النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَذَا النُّونِ إِذ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَن لَـن نَقْـدِرَ عَلَيهِ فَنَـادى فِـي الظُّلُمـاتِ أَن لا إِلـهَ إِلاَّ أَنـتَ سُبحَانَكَ إِنّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}

الأنبياء: ٨٧

في رحاب قصة ذي النون عليه السلام

يذكر القرآن قصة العبد الصالح ذي النون عليه السلام في سورة الأنبياء وفي سورة الصّافات وفي سورة ق، وقد ذكر القصة بتفاصيلها المفسرون وفيما يلي، نذكر نحن إجمالاً منها:

لما بعث الله يونس بن متي عليه السلام إلى أهل نينوى وهي من أرض الموصل في شمال العراق، دعاهم إلى عبادة الله تعالى، فأبوا عليه وتمادوا في كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا من ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى البر بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم وفرقوا بين الأُمّهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عزّ وجلّ وجَأروا إليه، فرفع الله عنهم العذاب.

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فهاج بهم البحر، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام فأبوا أن يلقوه في البحر لما يعرفون من فضله وصلاحه، ثم أعادوها

فوقعت عليه أيضاً فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً.

فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر فأرسل الله حوتاً يشق البحار حتّى جاء فالتقم يونس، فأوحى الله إلى الحوت أن لا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطنك يكون له سجناً. ولما صار يونس في بطن الحوت ظن انه قد مات، فحرّك رجليه، فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس، فمكث في بطن الحوت أربعين يوماً وهو يسبح لله ويدعوه ويقول:

{لا إِلَهَ إِلاّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}

فاستجاب الله له دعوته، ونجاه من البلاء، وأمر الحوت فطرحه في العراء. يقول تعالى: **{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}**، فأنجاه من بطن الحوت، ومن الحزن الذي كان يعتريه، والظلمات التي كان يعيش فيها، وهكذا يفعل الله بالمؤمنين الذين يقعون في الشدّة ويدعونه منيبين إليه، وقد جاء عن رسول الله 2 الترغيب في

هذا الدعاء الذي دعا به يونس ربه فاستجاب له.

وفيما يلي طائفة من التأملات في الفقرات الثلاثة من هـذا التسبيح:

١ ـ لا اله إلاّ أنت.

٢ ـ سبحانك.

٣ ـ إني كنت من الظالمين.

(١)

لا إله إلاّ أنت

خطاب العبد لربه

في هذه الكلمة يخاطب العبد ربه سبحانه وتعالى، خطاباً حضورياً مباشراً، بإلغاء كل الحجب الّتي تحجبه عنه عز شأنه، من دون تكلف وببساطة كاملة، هكذا: **{لا إِلَـهَ إِلاّ أَنتَ سُبْحَانَكَ}**.

ومن عظيم فضل الله تعالى على عباده، وجميل رحمته، أن يفتح على عباده أبواب خطابه، ولن يكون الإنسان أقرب إلى الله تعالى، في حال أفضل من حال الخطاب، ولن يلمس الإنسان حضور الله تعالى في حال أفضل من حال الخطاب، ولن يجد العبد في لذات القرب والتعامل مع الله لذّة أفضل من لذة الخطاب.

إن الله تعالى لا يغيب عن عباده. وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، يحول بين المرء وقلبه، ولكن الإنسان قد يغيب عن الله، فلا يشعر بحضوره، فإذا خاطب الله تعالى لمس

حضوره بكل مشاعره، وبقلبه وعقله.

والقرآن، خطاب الله للعباد، يفتح أبواب هذا الخطاب عليهم.

والدعاء خطاب العبد لله تعالى.

تأملوا في هذا الخطاب، وهو قرآن ودعاء:

{رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}.

وحال الدعاء من أفضل حالات العبد مع الله تعالى، ففي كل دعاء يلجأ العبد إلى الله، ويطلب حاجته منه، ولا يتم هذا اللجوء وهذا الطلب إلاّ بالخطاب.

وحال الصّلاة من مصاديق هذا الخطاب. ففي الصّلاة يخاطب العبد ربَّه، فيقول: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** ويقول **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}**.

إن خطاب العبد لله يعمق لديه الإحساس بحضوره عند الله

تعالى، ويعمق وعيه لحضور الله تبارك وتعالى.

وفي هذا الحضور، وفي هذا الوعي ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى من لذة القرب والخطاب والعلاقة بالله تعالى.

ففي كل صلاة كان رسول الله 2 يلمس لقاء الله، وفي هذا اللقاء كان يجد لذّة ومتعة هما قرّة عينه.

ولذلك كان رسول الله 2 يقول: «قرة عيني الصّلاة».

ففي كل صلاة لقاء لله، وفي كل لقاء يخاطب العبد ربَّه، وليس شيء في هذا الكون كله، في الدنيا والآخرة، يعادل هذا الخطاب بين الله تعالى وعبده.

ومن بؤس الإنسان وشقائه أن يفتح الله تعالى عليه أبواب هذا الخطاب في الصّلاة والدعاء ويرفع ما بينه وبين عبده من الحجب ويدعوه إلى خطابه، ويأذن له بذلك ويستجيب لخطابه ودعائه، رغم هذا الفاصل اللاّمتناهي الَّذي يفصل العبد عن الله... ثم لا يعي العبد قيمة هذا الخطاب، ولا يشعر بما يتضمنه من لذة وقرة عين.

حلقات التوحيد الثلاثة

لا إله إلاّ أنت

هذه الكلمة هي كلمة التوحيد، وهي الفاصل بين التوحيد والشرك.

وأعظم كلمات التوحيد ثلاث كلمات وثلاث حلقات:

توحيد الخلق والسّيادة والسّلطان لله في الكون، ونفي أي خلق وسلطان وسيادة لغير الله من دون الله تعالى في الكون، في عرض سلطان الله. وهذه هي الحلقة الأولى من حلقات التوحيد الثلاثة، وهي الولاية التكوينية لله في الكون.

والحلقة الثانية هي توحيد الولاية والسّيادة التشريعية لله تعالى على حياة الإنسان، بدليل ولايته تعالى وسيادته التكوينية على الكون. فلا يكاد ينفك هذا التوحيد عن ذلك التوحيد.

فان الَّذي يحكم الكون كله، بما في ذلك الإنسان، يحكم لا محالة حياة الإنسان، وحركته ونظام حياته وعلاقاته، وبالتالي يحكم المساحة التشريعية من حياته.

والحلقة الثالثة: توحيد الطاعة لله تعالى

فإنَّ توحيد الولاية لله تعالى على الإنسان يستتبع توحيد الطاعة من الإنسان لله، فلا ولاية ولا طاعة لغير الله تعالى على الإنسان، وليس في هذا الكون من يستحق الطاعة على الإنسان غير الله تعالى، إلاّ أن يكون بأمر من الله وإذنه، وهذه هي الحلقة الثالثة من حلقات التوحيد.

وهذه ثلاث حلقات من التوحيد.

توحيد المآب والمفزع

فأي معنى من هذه المعاني الثلاثة كان يقصده العبد الصّالح ذو النون عليه السلام وهو في بطن الحوت عندما كان ينادي: لا إله إلا أنت؟

في رأيي أن ذا النون عليه السلام كان قد تجاوز هذه المراحل الثلاثة من التوحيد.

وكان ينادي الله تعالى، في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، بمعنى آخر من التوحيد، وهو توحيد (المفزع) و(المآب) و(المفر).

وإذا كانت رحلة الظلم والإسراف تبعد الإنسان عن الله، فان رحلة (الفزع) و(الندم) تعيده إلى الله تعالى.

ولا يجد الإنسان في هذه الرحلة مفزعاً، يفزع إليه غير الله، ولا ملجأ يحميه من غضب الله غير رحمة الله تعالى.

وهذا هو توحيد (المفزع) و(المفر) و(المآب) في حياة الإنسان.

إن ذا النون عليه السلام يطوي في بطن الحوت آخر مراحل التوحيد... وآخر مراحل التوحيد هو توحيد (المآب) و(المفزع).

فيقرّ أوّلا باستحالة فرار العبد من الله، وأين يفر العبد من قبضة الله وسلطانه؟ وهل في هذا الكون الرحيب مكان لا يمتد إليه سلطان الله ونفوذه وقدرته وهل هناك مكان لا يحكمه الله؟!

ويقرّ ثانياً بأنه لا يحمي الإنسان من غضب الله مفزع، ولا معاذ، ولا ملجأ، ولا حمى إلاّ الله.

وعي توحيد المعاذ

ووعــي توحيــد (المعــاذ) مــن الــدرجات العاليــة لــوعي التوحيد، وقمة شامخة من قمم وعـي التوحيـد، ولا يؤتاهـا إلاّ القليل.

وقد رزق الله تعالى العبد الصّالح ذا النون عليه السلام هذه القمـة الشّامخة من الوعي في بطن الحوت.

كمـا رزق الله تعـالى موسـى بـن عمـران عليه السلام النبـوة فـي سيناء.

وكان بعض أرباب الذوق يقـول: كـان للعبـد الصّـالح ذي النون عروج إلـى الله، وكـان لرسـول الله 2 عـروج إلـى الله، غير أن عروج رسـول الله 2 كـان مـن المسـجد الحـرام إلـى المسجد الأقصى ثم إلـى السّـماء، وعـروج العبـد الصّـالح ذي النون كان من بطن الحوت في ظلمات ثلاث.

ومن عجب أن العبد في حال التوبة خائف من غضـب الله، يبحث عن طريق للفرار، غير انه لا يجـد غيـر الله تعـالى ملجـأ وملاذاً يلوذ به .

وهو من أرق معاني التوحيد وأصفاها وأنقاها.

وقد ورد في نصوص الأدعية المأثورة عن أهل البيت ^ الإشارة إلى هذا المعنى كثيراً.

ففي المناجاة الرابعة من المناجات الخمسة عشر للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«**يا مَنْ كُلُّ هارب إليهِ يلتجئُ، وَكُلُّ طالِب إياهُ يرتجي، يا خيرَ مرجوّ، وَيا أكرمَ مدعوٍّ، يا من لا يردُّ سائلهُ، ولا يخيبُ آملهُ، يا منْ بابهُ مفتوحٌ لِداعيهِ، وحجابهُ مرفوعٌ لِراجيهِ**».

في هذه الرحلة (رحلة العودة إلى الله) يعي الإنسان أمرين:

يعي أنه يستحق مقت الله وغضبه، ولابد له من ملجأ ومعاذ يلجأ إليه ويعوذ به.

ويعي أن لا ملجأ له ولا معاذ من الله غير الله.

وهذه هي حالة الفرار من غضب الله إلى الله، والاستعاذة بالله من غضب الله، وهي من مراتب التوحيد العالية، ومن أرق

مفاهيم التوحيد.

وقد ورد في المناجاة الشّعبانية الّتي كان يحرص عليها أهل البيت ^ :

(إلهي أعوذ بك من غضبك).

وفي المناجاة الخامسة من المناجات الخمسة عشر المعروفة:

(وها أنا متعرضٌ لنفحاتِ روحكَ وعطفِكَ، ومنتجِعٌ غيثَ جودكَ ولطفكَ، فارٌّ منْ سخطكَ إلى رضاكَ، هاربٌ منكَ إليكَ).

وفي المناجاة الشّعبانية أيضاً:

(إلهي أنا عبدٌ أتنصَّلُ إليكَ مِمّا كنتُ أواجهك بهِ منْ قلَّةِ إستحيائي).

وفي دعاء أبي حمزة:

(وأنا يا سيّدِي عائذٌ بفضلكَ، هاربٌ منكَ إليكَ، متنجِّزٌ ما وعدتَ منَ الصّفحِ عمَّنْ أحسنَ بكَ ظناً).

وتشبه هذه الحالة في الراشدين الموحدين حالة الطفل

الَّذي تسخط عليه أُمّه، وتغضب عليه، فينظر يميناً ويساراً ليبحث عن ملجأ يلجأ إليه ليحميه من غضبها، وسخطها، فلا يجد في دنياه الصّغيرة ملجأ يلجأ إليه ومعاذاً يعوذ به أكثر أمناً واكثر حناناً من حضنها فيلجأ إليها منها، ويعوذ بها منها.

وهذه الحالة في علاقة الطفل بأُمه من أرق حالات الطفولة.

ولو أن الكبار كانوا يملكون مثل هذا الوعي في علاقتهم بالله لما ترددوا لحظة واحدة في العودة والتوبة إلى الله في أية مرحلة كانوا من مراحل الإباق(١) والتمرد والمخالفة.

ويقبح بالراشدين أن لا يعوا في علاقتهم بالله تعالى ما يعيه الطفل من علاقته بأُمّه في سذاجة وبراءة.

وهذه هي حالة العبد الَّذي أبق، وخرج من بيت مولاه،

---

(١) الإباق: هربُ العبد من سيّده. قال الله تعالى في يونس عليه السلام، حين ندّ في الأرض مغاضباً لقومه (إذ أبقَ إلى الفلك المشحون). (لسان العرب ٣:١٠).

فعانى من الضّياع والعذاب، ولم يجد من يأويه، ويعطف عليه، ويستره، ويُشعِره بالعطف والرحمة غير مولاه، فيعود إليه من جديد، على استحياء، يطرق الباب ويواجه مولاه، مطرقاً على خجل، لا يجد ما يقول، ولا يعرف عذراً ليعتذر به عن إباقه وخروجه عن حمى مولاه، غير أن يتشبث بكرمه وعطفه ورحمته.

تأملوا في هذه الفقرة الشّفافة من المناجاة الأولى من المناجيات الخمسة عشر.

«فوعزتكَ ما أجدُ لذنوبي سواكَ غافِراً، ولا أرى لكسري غيركَ جابراً، وقدْ خضعتُ بالإنابةَ إليكَ وعنوتُ بالاستكانةِ بك. فانْ طردتَني مِنْ بابكَ فبمن ألوذُ؟ وإنْ رددتني عنْ جنابكَ فبمن أعوذُ؟ فوا أسفاهُ منْ خجلي وافتضاحي، ووالهفاهُ منْ سُوء عملي واجتراحي. إلهي هلْ يرجعُ العبدُ الآبقُ إلاّ إلى مولاه؟ أم هلْ يجيرهُ من سخطهِ احدٌ سواهُ... لك العتبى حتى ترضى».

«إلهي أنتَ الَّذي فتحتَ لعبادك باباً إلى عفوكَ،

سميتهُ التوبةَ. فقلتَ: {توبوا إلــى الله توبــةً نصــوحاً}[١] فما عذرُ من اغفلَ دخولَ البابِ بعدَ فتحهِ؟ إلهي إن كان قَبُحَ الذنبُ من عبدكَ، فليَحسُنِ العفوُ من عندكَ... إلهــي ما أنا بأولِ من عصاكَ فتبتَ عليه، وتعــرَّضَ لمعروفــكَ فجُدتَ عليه يا مجيبَ المضطرِّ، يا كاشف الضّرِّ،يا عظيم البرِّ يا عليماً بما في السّرِّ، يا جميل الستر).

وهذه رحلة العودة إلى الله.

رحلتان إلى اللّه:

وللإنسان إلى الله رحلتان:

رحلة الإقبال، ورحلة العودة، ولرحلة العودة إلى الله أدب، وأُصول، كما رحلة الإقبال على الله أدب وأُصول.

أدب الإقبال على اللّه

للإنسان إلى الله ـ كما قلنا ـ رحلتان، رحلة الإقبـال ورحلـة

---

(١) التحريم: ٨

العودة، ولكل منهما أدب وأُصول.

وإذا فقد الإنسان الأدب مع الله في أي من هاتين الرحلتين، لا يبلغ غايته في تلك الرحلة.

وللإقبال على الله أدب ونهج وأُصول.

تأملوا في هذه الفقرات الواردة في زيارة (أمين الله):

(اللّهمَّ إنّ قلوبَ المخبتين إليك والهة، وسبلَ الراغبينَ إليكَ شارعةٌ، وأعلامَ القاصدينَ إليك واضحةٌ، وافئدةَ العارفينَ منكَ فازعةٌ، وأصواتَ الداعينَ إليكَ صاعدةٌ، وأبوابَ الإجابةِ لهمْ مفتَّحةٌ، ودعوةَ منْ ناجاكَ مستجابةٌ).

وفي المناجاة الخامسة من المناجيات الخمسة عشر.

(أتيتكَ طامعاً في إحسانكَ، راغباً في إمتنانكَ، مستسقياً وابِلَ طَولِكَ، مُستَمطِراً غمامَ فضلِكَ، طالباً مَرضاتكَ، قاصداً جنابكَ، وارداً شريعةَ رفدكَ، مُلتمِساً سَنِيَّ الخيراتِ منْ عندِكَ، وافداً إلى حضرة جمالك، مُريداً وجهك، طارقاً بابكَ، مستكيناً لعظمتك وجلالك).

أدب العودة إلى اللّه:

وهـذه بعـض نمـاذج أدب (الإقبـال علـى الله). وأمـا أدب (العودة إلى الله) فهو يختلف بعـض الشّـيء عـن أدب الإقبـال على الله.

إن الإنسان إذا عاد إلى الله يكون حاله كالعبد الآبـق الَّـذي يرجع إلى مولاه، نادمـاً عائـذاً بـه، خجـلا، مسـتحيياً، منكسـراً، مقراً، معترفاً... كذلك يرجع العبد العاصـي إلـى الله تعـالى فـي رحله التوبة.

عناصر أدب العودة إلى الله

وللعودة إلى الله أدب خاص بها. له مفـردات وعناصـر ورد ذكرهـا فـي نصـوص الأدعيـة المـأثورة عـن أهـل البيـت ^ وسوف نذكر فيما يلي بعضاً من النصوص الجامعة لطائفة مـن عناصر أدب العودة إلى الله تعالى، لنعقبه بعد ذلك باسـتعراض موجز لأهم عناصر العودة إلى الله سبحانه.

النصوص الجامعة لمفردات أدب العودة إلى الله.

ورد في الدعاء الَّـذي علّمـه أميـر المـؤمنين علـي بـن أبـي

طالب عليه السلام لكميل بعض هذه الحالات التي تلازم العبد المذنب في عودته إلى الله، وهي من آداب رحلة العودة.

يقول أمير المؤمنين في هذا الدعاء.

(وقد أتيتُكَ يا إلهي بعدَ تقصيري وإسرافي على نفسي معتذراً، نادماً، منكسراً، مستقيلا، مستغفراً، منيباً، مُقراً، مذعناً، معترفاً، لا أجد مفراً مما كان مِنّي، ولا مفزعاً أتوجهُ إليهِ في أمري غيرَ قبولِكَ عذري، وإدخالكَ إيايَ في سعةِ رحمتكَ).

وفي دعاء الأسحار:

(يا رب إرحم دعائي، وتضرعي، وخوفي، وذلي، ومسكنتي، وتعويذي، وتلويذي).

وفي النص التالي، من دعاء الأسحار في شهر رمضان ورد ذكر طائفة من أهم عناصر أدب العودة إلى الله:

(يا رب هذا مقام العائذ بك من النار، هذا مقام المستجير بك من النار، هذا مقام المستغيث بك من النار، هذا مقام الهارب إليك من النار، هذا مقام من يبوء

لك بخطيئته، ويعترف بذنبه، ويتوب إلى ربه. هذا مقـام البائس الفقير. هذا مقام الخـائف المسـتجير. هـذا مقـام المحزون المكروب، هذا مقام المغمـوم المهمـوم. هـذا مقام الغريب الغريق. هذا مقام المستوحش الغَـرِق هـذا مقام من لا يجد لذنبه غافراً غيرك، ولا لضعفه مقويـاً إلاّ أنت، ولا لِهمِّه مُفرّجاً سواكَ. يا اللهُ، يا كـريمُ. لا تُحـرِق وجهي بالنّار بعدَ سـجودي لـك، وتعفيـري بغيـر مَـنٍّ عليكَ).

مفردات أدب العودة إلى اللّه

من النصوص الإسلامية

واهـم عناصـر أدب العـودة إلـى الله أربعـة عشـر عنصـراً. إستخرجناها من نصوص الأدعية المأثورة عن أهل البيـت ^ ، وفـي كلمـاتهم وأدعيـتهم علـيهم السـلام كنـوز مـن وعـي التوحيد وفقه التوحيد، قلما نجده في مصدر آخر.

وهذه العناصر هي:

١ـ الاعتراف ٢ـ الاعتـذار ٣ـ الإسـتحياء ٤ـ قبـول العتبـى ٥ـ الرجاء وحسن الظّن بـالله ٦ـ الـذل والإنكسـار ٧ـ الطمـع فـي رحمة الله ٨ـ الخوف ٩ـ العزم على الإنابة والتوبـة ١٠ـ الحـزن ١١ـ الاستغفار والإسترحام ١٢ـ الفرار إلـى الله ١٣ـ الإضـطرار ١٤ـ الندم.

وفيما يلي إشارة موجزة إلى بعض النصـوص الـواردة فـي كل واحدة من هـذه المفـردات الأربعـة عشـر، ليتسـنى لنـا أن نعيش إن شاء الله مفردات العودة إلى الله، فـي ضـوء نصـوص الأدعية، عسى أن يرزقنا الله تعالى (العودة) و(وعي العودة).

١ـ الاعتراف والإقرار

المفردة الأولى من هذه العناصر، الاعتراف والإقرار، وهو بداية البداية والخطوة الأولى على طريق العودة، ومن دونها لا تتحقق العودة.

ورحم الله العبد الصّالح ذا النون عليه السلام، حيث بدأ رحلة العودة إلى الله بالإقرار بـ (إنّي كنت من الظّالمين).

الشّرط الأول في العودة إلى الله: (الاعتراف) والشّرط الثاني (الاعتذار). وفي مقابل (الاعتراف) (الإنكار) وفي مقابل (الاعتذار) (التبرير). وكل من (الاعتراف) و(الاعتذار) جميل، وكل من (الإنكار) و(التبرير) قبيح. وليس الإنكار قبيحاً فقط لان الله تعالى يعلم السّرّ وخفايا أعمال عباده، وما توسوس به صدورهم، وإنّما لأن (الإنكار) نحو من العناد واللجاج والاستكبار، والله تعالى يمقت اللجاج والعناد والاستكبار والاعتداد.

ورأس مال الإنسان بين يدي الله أحد اثنين: (عمل صالح)، إذا كان يملك عملا صالحاً، (والاعتراف بالسيئات)

إذا كان لا يملك عملا صالحاً إذا كان الاعتراف بالسيئات يقترن بذل الانكسار بين يدي الله، ويتضمن العودة إلى الله تعالى.

فإن الإنسان يرفع إلى الله (العمل الصّالح) ويرفع إلى الله فقره وحاجته وضعفه وسواد وجهه وإنابته إليه تعالى، وكل منهما يصعد إلى الله.

وفي المقابل أن (العُجبْ) و(الرياء) يحبطان العمل الصّالح ويفسدانه. فإذا اقترن بالعمل الصّالح العُجبْ والرياء أفسداه وأسقطاه وأحبطاه. وإذا تجرد من (العُجبْ) لم يجد ما يقدمه إلى الله تعالى غير فقره وحاجته واعترافه بسيئاته. الله تعالى يبدل سيئات العبد في حال الاعتراف والانكسار إلى حسنات يقول تعالى:

{فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات}[1].

ما هذا الانقلاب؟ وكيف يتم هذا الانقلاب والتبديل؟

---

(١) الفرقان: ٧٠.

الجواب إن هذا الانقلاب يحدث بسبب شعور العبد بالندم والفقر والحاجة إلى الله وبالانكسار بين يدي الله.. وهي من عناصر التوبة. والتوبة تبدل السيئات إلى الحسنات.

ففي دعاء أبي حمزة: (إلهي إنْ كانَ قدْ دنا أجلي ولمْ يُقربني منكَ عمَلي، فقدْ جعلتُ الاعتراف إليكَ بذنبي وسائل عللي). ومن عجب أن يتقرب العبد إلى الله بالعمل الصّالح والاعتراف بالسيئات.

إذن بداية العودة إلى الله (الاعتراف بالذنب) وهذه البداية توطِّئ الإنسان لنزول رحمة الله، ولولا هذه البداية لم يتمكن ذو النون عليه السلام من أن يواصل هذه الرحلة إلى شوطها الأخير.

وقد جعل ذو النون عليه السلام إقراره هذا ذريعة إلى رحمة الله الواسعة.

ومن عجب أن يكون الإقرار بالذنب ذريعة إلى رحمة الله كما أن فعل الصّالحات ذريعة إلى تلك الرحمة. وللعلاقة بالله تعالى شؤون وأسرار لا يعيها إلاّ مثل ذي النون عليه السلام .

إن الإقرار بالذنب، والاعتراف بالإثم بين يدي الله تعالى

يكسر من شموخ الإنسان، ويضع من كِبَرِه، وينقله من موقع الشّموخ والاستعلاء إلى موقع العبودية والفقر بين يدي الله، حيث تنزل رحمة الله على عباده.

وقد ورد ذكر الاعتراف والإقرار كثيراً في المأثور من أدعية أهل البيت ^ .

ففي الدعاء الَّذي يرويه أبو حمزة الثمالي عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام :

(أنا المذنب الَّذي سترته، والخاطئ الَّذي أقلته، أنا يا رب الَّذي لم أستحيك في الخلاء، ولم أراقبك في الملاء، أنا صاحب الدواهي العظمى، أنا الَّذي على سيده اجترى، أنا الَّذي عصيتُ جبّار السّماء، أنا الَّذي أعطيتُ على معاصي الجليل الرُشا، أنا الَّذي حين بُشّرتُ بها خرجتُ إليها أسعى، أنا الَّذي أمهلتني فما ارعويتُ، وسترتَ عليّ فما استحييتُ، وعملتُ بالمعاصي فتعدَّيتُ، واسقطتني من عينكَ فما باليتُ، فبحلمك أمهلتني، وبستركَ سترتني، حتّى كأنك

أغفلتني، ومن عقوبات المعاصي جنبتني، حتّى كأنك استحييتني).

وفي الدعاء الَّذي علمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لكميل بن زياد:

«**أللهمَّ عظمَ بلائي، وأفرطَ بي سوءُ حالي، وقصرتْ بي أعمالي، وقعدتْ بي أغلالي، وحبسني عن نفعي بُعدْ أملي، وخدعتني الدُّنيا بغرورِها، ونَفسي بجنايتِها ومِطالي يا سيدي**».

ومن المناجاة الأولى .

(إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلّتي).

٢ـ الاعتذار

(الاعتذار) مقابل (التبرير) والاعتذار بين يدي الله تعالى جميل، والتبرير قبيح. ولابد لهذا الإجمال من إيضاح، فأقول:

الفرق بين (التبرير) و(الاعتذار). إن الاعتذار اعتراف بالخطأ وطلب المسامحة، والتبرير توجيه للعمل من دون الاعتراف، بالخطأ. والله تعالى يحب العذر ويكره التبرير لأن

التبرير نحو من المكابرة في تصحيح الخطأ.

وليس المهم كيف يكون الاعتذار، وإنما المهم أن يكون العبد بصدد الاعتذار، وليس بصدد اللجاج والعناد والمكابرة.

ويتم الاعتذار حتى بالاعتراف والإقرار: «إلهي مني لؤمي ومنك كرمك».

والله تعالى كريم لا يرد عذر العبد إذا علم منه العودة والندم، مهما كان عذره، حتى لو كان عذره إقراراً باللؤم وقلة الحياء والصّلف.

وقد يعتذر العبد بكرم وجه الله، وهو إعتذار جميل يناسب جمال وجه الله، فيعتذر العبد إلى الله بأنّه لم يعصه حين عصاه متمرداً على الله، مستخفاً بأمره، مستهيناً بسلطانه وحكمه، وإنما عصاه إذ عصاه واثقاً برحمته وفضله وستره.

تأملوا في هذه اللوحة الرائعة من دعاء أبي حمزة:

«**وما أنا يا رب؟ وما خطري؟ هَبني بفضلكَ، وتصدَّق عليّ بعفوك، أي ربِّ جللني بسترك، واعف عن توبيخي بكرم وجهك. فلو إطلع اليوم على ذنبي غيرك ما فعلته،**

ولو خفت تعجيـل العقوبـة لاجتنبتـه، لا لأنـك أهـونُ النّاظرين إليَّ، وأخفُ المطَّلعين عليّ، بل لأنـكَ يـا ربِّ خيرُ السّاترينَ، أحكمُ الحاكمينَ وأكرمُ الأكرمينَ، ستّار العيوبِ، غفّار الذنوبِ، تستر الـذنب بكرمـكَ، وتـؤخّرُ العقوبةَ بحلمكَ، فلكَ الحمدُ على حلمكَ بعـدَ علمـكَ، وعلى عفوكَ بعدَ قدرتكَ، ويحملنـي، ويجرؤنـي علـى معصيتكَ حلمكَ عنّي، ويدعوني إلى قلَّةِ الحياءِ سـترُكَ عليَّ ويسرعني إلى التَوثُّبِ على محارمكَ معرفتي بسـعة رحمتكِ وعظيمِ عفوكَ».

وما اجمل هذا **العذر «ويدعوني إلى قلة الحياة سـترك عليّ»**

وهذه الفقرات من دعاء أبي حمزة تتضـمن مفاصـل هامّـة وحسّاسة.

فهي:

أولا: تواضع وتصاغر بين يدي الله تعـالى «ومـا أنـا يـا ربِّ وما خطري». استهانة بصاحب الذنب. والاستهانة بالذنب قبيح

والاستهانة بمرتكب الذنب جميل.

ثانياً: استرحام واستغفار.

(هَبني بفضلكَ وتصدق عليّ بعفوك أي ربٍّ جللني بسترك... واعف عن توبيخي بكرم وجهك).

نسأله تعالى أن يعفو عنا فلا يعاقبنا بسيئات أعمالنا ولا يحاسبنا عليها، ولا يذكرنا بها حتى لا يخجلنا، والكريم لا يعاقب المذنب إذا تاب، ولا يذكره بذنبه لئلا يخجله ويحرج موقفه بين يديه.

ثالثاً: اعتراف **(فلو اطلع اليوم على ذنبي غيرك ما فعلته).**

رابعاً: نفي لشبهة الشّرك والاستهانة بعظمة الله وجلاله: **(لا لأنك أهون الناظرين وأخف المطلعين عليّ).**

خامساً: الاعتذار بأجمل العذر: (بل لأنك يا رب خير السّاترين... ستار العيوب، غفار الذنوب). وهو عذر جميل، وقد ورد في الحديث في تفسير قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}**.

إن الله تعالى يلقن عبده في هذه الآية بان كرمه تعالى هو الَّذي غرّه على معصيته.

وفي دعاء أبي حمزة ايضاً:

(إلهي لمْ أعصكَ حينَ عصيتكَ، وأنا بربوبيتك جاحدٌ، ولا بأمرك مستخفٌ، ولا لعقوبتكَ متعرضٌ، ولا لوعيدكَ متهاونٌ، ولكنْ خطيئةٌ عرضتْ، وسولتْ لي نفسي، وغلبني هوايَ، وأعانني عليها شِقوتي، وغرّني سترك المُرخى عليّ).

والأمر هنا دقيق ورقيق وحساس في مقام الاعتذار إلى الله. فهناك ما لا يصح الاعتراف به والاعتذار عنه. وهناك ما يصح الاعتراف به والاعتذار عنه.

أما ما لا يصح الاعتراف به والاعتذار فهو الإستهانة بأمر الله وسلطانه، والإستهانة بوعيد الله وعذابه وقهره.

(لا لأنك أهونُ النّاظرين وأخفُ المطّلعين).

(لم أعصكَ حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحدٌ ولا لأمركَ مستخفٌ، ولا لعقوبتك متعرضٌ).

فهذا ما لا يجوز الاعتراف بـه والاعتـذار عنـه مطلقـاً، لأنـه يمس التوحيد وكبرياء الله، ولله العظمة والكبريـاء، وهـو مـا لا يرتضيه الله تعالى لعباده.

وأما ما يصح الاعتذار فهو أمـران: الاعتـذار بحلمـه تعـالى وجميـل سـتره علـى عبـاده **(ويحملنـي ويجرؤنـي علـى معصيتك حلمك عنّي، ويدعوني إلى قلة الحياء سـترك عليّ)**، وهـذا هـو النحـو الأول مـن الاعتـذار الجميـل. وكـأنّ العبد يقول: إنني لؤمت لأنك حسن جميل.

والنحو الآخر من الاعتذار الجميل: الاعتـذار بـدناءة نفـس العبد وغلبة هواه وسقوط همته.

(ولكن خطيئة عرضت وسوّلت لي نفسـي، وغلبنـي هواي).

والأمل بستر الله ورحمته.

(بلْ لأنكَ يا ربِّ خيرُ السّاترين وأحكـمُ الأحكمـينَ واكرم الأكرمينَ ستّار العُيوبِ غفار الذنوبِ).

وفـي دعـاء عرفـة للإمـام زيـن العابـدين عليه السلام نجـد صـورة

أخرى من هذا الاعتذار الجميل في السّلب والإيجاب.

فمن ناحية السّلب ينفي الإمام في الدعاء أن يكون مخالفة العبد لأمر مولاه عناداً واستكباراً.

وفي الإيجاب يعتذر العبد إلى ربه بأمرين: بسلطان الهوى، وغلبة الشّهوة، وضعف النفس تجاه مغريات الحياة الدنيا، أولا.

وبرجاء العبد لعفو مولاه، وثقته بكرمه سبحانه وتعالى ثانياً.

فلننظر في هذه الرائعة من روائع الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام من دعائه في عرفة، وهي تسع فقرات متواليات:

١ـ أنا عبدُك الَّذي أنعمتَ عليهِ قبلَ خلقِك لَهُ، وبعدَ خلقِك إياهُ فجعلتَه مِمَّنْ هَدَيْتَه لدينك، ووفقتَه لحقِك، وعصمتَه بحبلِكَ، وأدخلْتَهُ في حِزبِكَ، وأرْشَدْتَه لموالاةِ أوليائِكَ، ومعاداةِ أعدائِكَ.

٢ـ ثمّ أمرتَه فلمْ يأتمرْ وزجرتَه فلمْ يَنْزَجِرْ، ونهيتَه

عن معصيتِكَ فخالفَ أمرَكَ إلى نهيِكَ. (وهذا اعتراف، والاعتراف شرط الاعتذار).

٣ـ لا مُعانَدَةً لكَ ولا استكباراً عليك. (وهذا هو الجانب السّلبي، الَّذي تحدثنا عنه. ينفي فيه الإمام أن تكون مخالفة العبد استكباراً وعناداً يخرجه عن دائرة العبودية والتوحيد).

٤ـ بلْ دعاهُ هواهُ إلى ما زَيّنته والى ما حَذرْتَهُ وأَعانَه على ذلكَ عدوُّكَ وَعَدُوُّهُ. (وهذا هو الاعتذار الأول).

٥ـ راجياً لعفوك، واثقاً بتجاوُزِك. (وهذا هو الاعتذار الثاني).

٦ـ وها أنا ذا بينَ يديْكَ صاغراً، ذليلا، خاضعاً، خاشِعاً، خائِفاً، معترِفاً بعظيم من الذنوب تَحَملْتُه وجليل من الخطايا اجْتَرَمْتُهُ. (اعتراف آخر وتصاغر وتذلل بين يدي الله).

٧ـ مستنجداً بِصَفْحِك لائذاً بِرحْمَتِك، موقناً إنه لا يجيرني مِنْكَ مجيرٌ، ولا يمنعني مِنْكَ مانعٌ. (استغاثة

واستعاذة بالله وثقة بعفو الله وكرمه).

٨ـ فَعُدْ عليّ بما تعودُ بِه على من اقترفَ من تَغَمُّدِك وجُدْ عليّ بما تجودُ بِه على من ألقى بيدهِ إليكَ من عفوك، وامننْ عليّ بما لا يتعاظمُك أن تَمُنَّ به على من أمَّلَكَ مِن غُفْرانِكَ، ولا تردَني صِفراً مما ينقلبُ به المتعبدون لكَ من عبادِك. (وهذا دعاء واسترحام واستغفار).

٩ـ وإني وإنْ لَمْ أُقدّم ما قدموهُ من الصّالحاتِ فقد قَدمْتُ توحيدَك ونفي الأضدادِ والأندادِ والأشباهِ عنك، وأتيتُك من الأبواب الّتي أمرتَ أن تؤتى مِنها، وتقربتُ إليكَ بما لا يقرُبُ به أحدٌ مِنك إلاّ بالتقرُّبِ منه. (وهذا توسل إلى الله بتوحيده، وهو من اعظم ما يتوسل به العبد إلى الله).

٣ـ الاستحياء

يعود العبد المذنب من رحلة الهوى والعصيان إلى الله على خجل واستحياء، فهو لا يجد عذراً يُقدّمه إلى الله تعالى

غير الاعتراف بسوءاته وسيئاته، ولا يجد في حياته عملا صالحاً يقدمه إلى الله، غير سواد القلب والوجه. وأن العبد ليعصي الله فيستحيي أن يخاطب الله تعالى ويواجهه به، ولكن إذا لم يجد بداً من العودة، ولم يجد باباً آخر يطرقه غير باب الله تعالى، ولم يجد ملجأً يلجأ إليه إلى الله عاد مطرقاً، مستحيياً خجولا.

جاء من المناجاة الأولى:

(فَوَا أَسَفا من خَجَلي وإفِتِضاحِي، ووالَهفاهُ من سوءِ عملي وإجتراحي).

٤ـ قبول العتبى

عندما يُغضِب العبدُ مولاه ويخشى على نفسه من سخط مولاه يسعى إلى أن يخفف من حدة غضبه عليه بالعتاب، فان العتاب يمتص الغضب والسّخط كثيراً، فيعطي من نفسه لعتاب مولاه، ويتقبّل عتاب مولاه حتّى يمتص العتاب غضبه وسخطه، ويطلب منه أن يعاتبه فيعاتبه حتّى يرضى عنه. (لك العتبى، لك العتبى حتّى ترضى).

فإذا بدأ المولى بالعتاب أحَسَّ العبد بالانفراج، فإن الغضب المكتوم يحرق العبد، أما إذا بدأ المولى يعبر عن غضبه بالعتبى، أَحَسَّ العبد بالأمن والانفراج.

٥ـ حسن الظّن بالله

وهو من متطلبات (العودة إلى الله)، ولا يمكن أن يعود الإنسان إلى الله من غير حسن الظّن بالله، وكل إنسان يأخذ من الله بقدر ما يحسن الظّن بالله.

وفي دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام نلتقي ثلاث لوحات لحسن الظن بالله، نستعرضها ونتأمّل فيها:

اللوحة الأولى:

واليك اللوحة الأولى في أربع فقرات:

١ـ (إلهي مَنْ الَّذي نَزَلَ بكَ ملتمساً قِراكَ، فما قَربتَه، وَمَنْ الَّذي أناخَ ببابِكَ مُرْتَجياً نداك فما أولَيتَه؟).

وهذه هي الفقرة الأولى من هذه اللوحة. يقول فيها الإمام عليه السلام: هل نزل بك أحد من خلقك يلتمس قراك وضيافتك فما قريته؟

والطلب على نحوين: طلب غير المضطر وهو من يعرف لحاجته وجوهاً من العلاج إن لم يستجب المسؤول لطلبه، أو لا تكون حاجته ملحّة.

والنحو الآخر من الطلب، طلب المضطر الَّذي لا يجد بدّاً من الطلب ولا يعرف وجهاً لعلاج أمره غير أن يستجيب المسؤول لطلبه فينزل بحاجته عند باب المسؤول، ويقيم ببابه، وان لم يستجب المسؤول لحاجته لا يرحل عنه، وكيف يرحل عنه، وأين يرحل، وهو لا يعرف علاجاً لمشكلته إلاّ أن يستجيب له المسؤول؟

وهذه حالة المضطر، التي ينزل بحاجته ولا يرحل... وهي حالة مألوفة إلى الآن في حاجات الناس بعضهم إلى بعض حيث ينزل السّائل بباب المسؤول، وينيخ ببابه، ولا يرحل إلاّ بحاجته.

والإمام علي بن الحسين عليه السلام ينزل بحاجته إلى الله نزول المضطر الَّذي لا يجد بدّاً من قضاء حاجته، ولا يعرف لقضائه وجهاً آخر غير أن يستجيب الله لدعائه فيقول:

(إلهي من الَّذي نزل بك ملتمساً قِـراكَ فمـا قَريتَـهُ، وَمَنْ الَّذي أناخَ ببابِكَ مُرْتَجياً نداك فما أولَيتَه؟).

٢ـ ثم يقـول ﵇: «**أيَحْسُنُ أَنْ أرجعَ من بابِك بالخيبـةِ مصْـروفاً، ولسـتُ أعـرِفُ سِـواك مـولىً بالإحسـانِ مَوْصوفاً؟**».

وفي هذه الفقرة يقول الإمام ﵇ أيحسن، إلهـي، أن ينـزل العبد حاجته ببابك ثم تصرفه عن بابك بالخيبة؟

فإذا ألجأت الحاجة والفقر العبد إلى النـزول ببـاب مـولاه، فلا يحسن بكرم المـولى ورحمتـه أن يصـرف عبـده مـن بابـه خائباً.

٣ـ (وكيف أرجو غيرَك والخيرُ كلُهُ بيـدِك؟) وكيـف أُأَمِّلُ سِواكَ والخلقُ والأمرُ لكَ؟ وإلى أيْـنَ أرجِـعُ مـن بابِك؟ وإلى أين تصرِفُني عن بابِـك؟ والأمـرُ، والخيـرُ، والسّلطانُ، والغنى، والرحمةُ، والفضلُ كلهُ منْكَ وببابِك؟ ولستُ أعرفُ غيرَ بابِك بابـاً أطرُقُـه، ولا غيـرَ رحابـك رحاباً أنزلُه، ولا غيرَ فضلِك فضلا أرجوهُ.

٤ـ (أأقطعُ رجائي مِنْكَ وقدْ أوْلَيتَني ما لمْ اسـأَلْهُ مِـن فضلِكَ؟ أمْ تُفقرني إلى مِثلي وأنا أعتصمُ بحبلك؟ أأقطعُ رجائي مِنْكَ أم تَكِلُني إلى إنسان مِثلي في فَقْرِهِ وحاجتِهِ وقد أوصلتُ حبلي بحبلِك واعتصمتُ بك؟).

اللوحة الثانية:

وأشفع هذه اللوحة بلوحة أخرى من روائع الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام من حسن الظّن بالله من المناجاة الخامسة من الخمس عشرة. **(إلهي إن كانَ قد قلَّ زادي في المسيرِ إليكَ، فلَقدْ حسنَ ظني بالتّوكلِ عليكَ. وإن كان جُرمي قد أخافني من عقوبتكَ، فإن رجائي قد أشعرني بالأمن منْ نقمتِكَ، وان كان ذنبي قـدْ عَرَّضـني لعقابكَ فقد آذنني حُسْنُ ثقتي بثوابِكَ).**

وحسن الظّن بالله، والرجاء في الله يجبران الكسر الحاصل للعبد من ذنوبه وآثامه، ويسدان النقص الحاصل للعبد من قلة الزّاد المسير الصعب الطويل.

(إنْ كانَ قدْ قلَّ زادي في المسير إليكَ فلقــد حســنَ ظَني بالتّوكُّل عليك).

ورجاء العبد في الله يجبر الكسر الحاصل للعبـد مـن ذنوبـه وآثامه **(وان كان جرمي قد أخافني مــن عقوبتــك، فــإن رجائي قد أشعرني بالأمن من نقمتك).**

وليس فقط يجبر (الرجاء) الكسـر الحاصـل مـن الـذنوب، وإنما يبدل شعور العبد بالخوف من غضب الله إلى الإحسـاس بالأمن من رحمته.

اللوحة الثالثة:

وفي دعاء الإمام زين العابدين علـي بـن الحسـين عليه السلام فـي أسحار رمضان الَّذي علمه لأبي حمزة الثمالي:

(يا ربِّ هذا مقام مــن لاذ بــكَ، واســتجارَ بكرمــكَ، وأَلِفَ إحسانك ونعمــكَ، وقــد توثقنــا منــكَ بالصَّــفحِ القديم، والفضل العظيم، والرحمة الواســعة، أفتــراك يــا ربِّ تُخْلِفُ ظنوننا، أو تخيِّب آمالنا؟

كلا يا كريم! فليس هــذا ظنُّنــا بــك، ولا هــذا فيــك

طمعنا، إنَّ لنا فيك أملا طويلا كثيراً. إن لنا فيـك رجـاءً عظيماً.

عصيناك، ونحنُ نرجـو أن تسـتُر علينـا، ودعونـاك ونحن نرجُو أنّ تستجيبَ لنا، فحقّق رجاءَنا مولانا).

وهذه بعض مقامات العبودية في هذا الدعاء

مقام الأمن، ومقـام الإنـس، ومقـام الركـون والثقـة. ولابـد للعبد أن يشعر في قيامه بـين يـدي الله تعـالى بهـذه المقامـات، ولنستعرض هذه المقامـات فـي كـلام سـيد السّـاجدين وزيـن العابدين عليه السلام:

(هذا مقام من لاذ بك، واستجار بكرمك).

وهذا هو (مقام الأمن) فإذا لاذ العبد بربـه واسـتجار بكرمـه من غضبه أحسَّ ببرد الأمن. ثم يقول عليه السلام:

و(أَلِفـَ إحسانك ونعمك).

وهذا (مقام الأنس) فـلا يـأنس الإنسـان بأحـد كمـا يـأنس بالذي ألف إحسانه وكرمه، كما يأنس الإنسان بأمه وأبيـه. ثـم يقول عليه السّلام:

(عصيناك ونحن نرجو أن تستر علينا).

وهذا (مقام الرجاء) فإن أقبح حالات العبد وأبعدها عن الله حالة المعصية والمخالفة. فإذا كان الرجاء بالله والركون بفضله لا يفارقه حتّى في حالة المعصية والمخالفة، فهو من المقيمين مقام الرجاء. وقبيح على العبد أن يعصي ربه وهو يراه حاضراً شاهداً. وجميل بالعبد أن لا تفارقه الرجاء بالله وبستره وفضله حتّى في حالة المعصية.

ولا ينفي ذلك القبيح جمال هذا الجميل، ولعل هذا الجميل يكون سبباً في إقلاعه من ذلك القبيح.

إن اليأس وقطع الرجاء عن الله في حالة الذنب والمعصية أعظم من الذنب نفسه. ومهما كانت جريمة الإنسان بين يدي الله تعالى، فلا يجوز ولا يصح أن يقطع رجاءه عن الله حتّى في أقبح حالاته مع الله، وهي حالة المعصية والإثم.

٦ـ الذُّلُ والانكسار

للعودة إلى الله تعالى أسرار وأُصول ومنهج، فمن أحسن استخدام تلك الأصول وذلك المنهج، يسّر الله تعالى له

أسباب العودة، ومن لم يحسن ذلك يبوء الخسران.

ومن أسرار العودة ومناهجها حالة الذل والانكسار بين يدي الله تعالى، ولن يكون العبد أقرب إلى الله في حال، ولا الرحمة أسرع إليه من حالة الذل والانكسار.

فإن الطريق إلى الله من «خلال النفس» وليس من «خارج النفس». وداخل النفس الإنسانية طرق كثيرة للعودة إلى الله، ومن أرحب هذه الطرق وأوسعها وأسرعها طريق (الذُّل والانكسار) بين يدي الله تعالى. وأقرب الدعوات إلى الاستجابة دعوة الذليل المنكسر بين يدي الله.

وأما من يريد العودة إلى الله على طريق الاعتداد بالنفس والشّموخ بين يدي الله، فقد يصل إلى أيّ شيء آخر، إلا أنه لن يصل إلى الله تعالى.

فإن أبواب رحمة الله مفتوحة على الناس، وهي تفيض عليهم فيضاً من غير توقف ولا حساب، وليس فيها شحّ ولا بخل، ولكن القلوب تنغلق على رحمة الله وفضله، فإذا انغلقت القلوب فلا تنفعها هذه الرحمة النازلة الّتي تصب من

عند الله على عباده صبَّاً.

فإذا فتح الإنسان قلبه على الله نزلت عليه هذه الرحمة من دون حساب.

وليس شيء يفتح مغاليق قلوب الناس على رحمة الله تعالى أفضل من حالة الذل والانكسار. فإن الإنسان إذا ذلّ بين يدي الله، وانكسر لم يبقَ باب مُوصَد على الله في قلبه إلاّ انفتح .

وفي منهج الأدعية المأثورة عن أهل البيت ^ تأكيد على هذا النحو من التذلل والانكسار، بين يدي الله، في «رحلة العودة إلى الله».

ونماذج ذلك كثيرة، ونصوص الأدعية المأثورة عن أهل البيت غنية بهذه الحالة، وفيما يلي نذكر نموذجاً من الدعاء الَّذي علّمه الإمام الصّادق عليه السلام لأم داود، وهو وارد في أعمال شهر رجب. وإليك هذا المشهد الرائع من مشاهد الانكسار والتذلل بين يدي الله تعالى في رحلة العودة:

«ارحم ذلّي وفاقَتي، وفَقَري، وَانفِرادي، وَوَحدتي،

وخضوعي بينَ يديكَ واعتمادي عليكَ، وتضرُّعي إليكَ، ادعوكُ دعاءَ الخاضِعِ الذَّليل، الخاشِعِ، الخائفِ، المشفِقِ، البائِس، المهين، الحقيرِ، الجائع، الفقير، العائذ، المستجير، المقر بذنبه، المستغفر منهُ، المستكين لربهِ، دعاءَ من أسلمَتْهُ ثقتهُ، ورفضتهُ أحِبَّته، وعظُمَت فجيعتُهُ، دعاءَ حرِق حزين، ضعيف، مهين، بائس، مستكين بكَ، مستجير».

وهذه المفردات الواردة في هذه الفقرة من الدعاء تجسِّد حالة انكسار العبد بين يدي الله: الذل، والفاقة، والفقر، والانفراد، والوحدة، والخضوع، والاعتماد على الله، والتضرُّع إليه، والخشوع، والخوف، والإشفاق، والهوان، والحقارة، والجوع، والاستعاذة، والاستجارة بالله، والإقرار والاعتراف بالذنب لله، والحزن، والفجيعة والبؤس، والاستكانة.

هذه بعض عناصر هذا المشهد الفريد الَّذي يجسد عبودية الإنسان وذله وهوانه بين يدي الله تعالى.

٧ـ الطمع في رحمة الله

من شروط العودة إلى الله الطمع في رحمته.

والطمع غير الاستحقاق، فإن الطمع في ما لا يستحقه الإنسان. وإذا كان المذنب العائد إلى الله لا يستحق العفو والرحمة، بميزان العدل، فإنه يطمع في عفو الله ورحمته بميزان آخر هو فضله ورحمته، وليس باستحقاق العبد.

وفي «رحلة العودة إلى الله» لا يستحق العبد العفو والرحمة بعمله، ولكنه يطمع، وهذا الطمع يقوم على أسس صحيحة وثابتة ومؤكدة من فضله ورحمته الّتي وسعت كل شيء. وجاء في دعاء الافتتاح الَّذي يتلوه المؤمنون في ليالي شهر رمضان.

«**أللّهمَّ إنَّ عفوكَ عن ذنبي، وتجاوزكَ عن خطيئتي، وصفحكَ عن ظُلمي أطمعني في أن أسألك ما لا استوجبه منك**».

إنّ ما يتوقعه العبد، في هذا النص من فضل الله تعالى ورحمته، لا يقوم على أساس الاستحقاق والاستيجاب:

«**أطمعني في أن أسالك ما لا استوجبه منك**». ولكنه يعتمد على فضل الله ورحمته. «**إن عفوك عن ذنبي وتجاوزك عن خطيئتي أطمعني...**». وهو طمع له مبرراته الصّحيحة والمعقولة.

٨ـ الخوف من اللّه

ومن شروط العودة «الخوف» وقد ذكرت آنفاً إن طريق العودة داخل النفس، وليس خارجها.

والخوف من الله ممَّا جنى الإنسان على نفسه من مخالفته، من مراحل الطريق إلى الله في داخل النفس، وما لم يخف العبد ربه على نفسه مما جنى عليها لن يعود إلى الله، فليست العودة إلى الله رغبة وأُمنية في نفس العبد، وإنّما هي حقيقة قائمة في داخل النفس ومن عناصرها «الخوف».

وفي نصوص الأدعية الإسلامية يتجسد هذا الخوف في مشاهد كثيرة. ففي دعاء الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام الَّذي علّمه لأبي حمزة الثمالي: «**أدعوك يا سيدي بلسان قد أخرسه ذنبه. ربِّ أناجيك بقلب قد أوبقه**

جرمه. أدعوك يا رب راهباً، راغبـاً، راجيـاً، طائعـاً. إذا رأيت مولاي ذنوبي فزعت. وإذا رأيت كرمك طمعـت. فإن عفوت فخير راحم، وإن عذَّبت فغير ظالم».

وفي هذا النص يمتزج «الخوف» بـ«الرجاء» والطمع، وهـو مزيج يحبّه الله. وبهذا المزيج النفسي من «الخوف» و«الرجـاء» يستقيم سلوك الإنسان ومشاعره تجاه الله تعالى في رحلة العودة إليه.

وليس معنى هذا المزيج أن يكون بعضه الخوف وبعضه الرجاء، بل كلُّه خوف وكل رجاء.

وكيف يجتمع الخوف كلّه والرجاء كلّه والأمن كلّه في نفس واحدة؟ وكيف يتكون هذا المزيج النفسي من «الخوف والرجاء» و«الفزع والأمن» في نفس الإنسان؟

الجواب في النص السّابق نفسه: «إذا رأيت مولاي ذنوبي فزعت، وإذا رأيت كرمك طمعت».

إذا نظر الإنسان إلى ذنوبه غلبه الفزع والخوف، وعلم انه يستحق العقوبة. وإذا نظر إلى كرم الله تعالى طمع وأمن.

وكل من «الخوف والفزع» و«الرجاء والأمن» له أسبابه الحقيقة في نفس الإنسان. والعبد المؤمن في رحلة العودة إلى الله تعالى يشعر بهذا وذاك جميعاً.

٩ـ العزم على العودة

ومن ضرورات هذه الرحلة العزم والإصرار على العودة، فهي رحلة شاقة، وذات شوكة، يتجاوز فيها الإنسان نفسه أولا، وهذا أشق ما في هذه الرحلة، ويثبت فيها ثانياً بفضل الله ورحمته من دون استحقاق واستيجاب فإن لم يثبت، ولم يعزم، ولم يصر على نيل مرضاة الله تعالى لا ينال ما يريد. ومرة أخرى أقول: ليس في رحمة الله تعالى وفضله شح وبخل، وإنما لابد أن يُوَطِّن الإنسان نفسه لنزول رحمة الله، واستقبال عفوه وفضله الَّذي يفيض على العباد فيضاً.

ومن شروط هذا التوطين والإعداد النفسي العزم والإصرار على العودة إلى الله. فلنتأمّل في هذه النصوص من أدعية أهل البيت ^

النص الأول:

وفي النص التالي، من دعاء أبي حمزة الثمالي، نلتقي هذا المشهد العجيب من مشاهد العزم والإصرار على العودة:

(فوعزَّتِكَ يا سيّدي لَو نَهرتَني ما بَرحْتُ من بابكَ، ولا كففتُ عن تملّقِكَ، لِما انتَهى إليّ منَ المعرفةِ بجودكَ وكرمكَ. وأنت الفاعلُ لما تشاءُ، تعذِّبُ من تشاءُ بما تشاء، وترحمُ من تشاء بما تشاءُ، كيف تشاءُ).

وهذا النص يتضمن أمرين: (العزم) و(المعرفة)، ولا يتم العزم من دون المعرفة. ولابد من أن تستتبع المعرفة العزم فهما متلازمان.

أما العزم: «**فَوَعزتِك يا سيدي لو نَهَرْتَني ما برحتُ من بابِك، ولا كففتُ عن تملقِك**». **وهو عزم، وأي عزم؟ لو نهرتني عن بابك ما كففت عن تملّقك.**

أما المعرفة: فهو «**لِما انتَهى إليّ منَ المعرفةِ بجودكَ وكرمكَ، وأنت الفاعلُ لما تشاءُ، تعذِّبُ من تشاءُ بما تشاء كيف تشاء، وترحمُ من تشاء بما تشاءُ، كيف**

تشاءُ».

وهذه معرفة بأمرين، لا سبيل إلى التشكيك فيهما:

الإيمان بجوده وكرمه تعالى: «لما انتهى إليّ من المعرفة بجودك وكرمك».

والإيمان بسلطانه المطلق الَّذي لا يَحِدُّهُ شيء ولا يعجزه شيء: «وأنت الفاعل لما تشاء... الخ».

فإذا آمن الإنسان، بهذا وذاك، آمن بجود الله وكرمه، وآمن بسلطانه المطلق... فلا يكاد يتردد في العودة إلى الله تعالى، واللجوء إلى كرمه، ولا يكاد يداخل عزمه ويقينه خلل أو شك. وهل يبخل الله تعالى عليه برحمته وهو الجواد الكريم، أم يقصر عن ذلك سلطانه تعالى وقوّته وهو الفاعل لما يشاء.

النص الثاني:

وفي الدعاء الذي علّمه زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام لأبي حمزة الثمالي، رحمه الله نلتقي بالنص التالي، وهو مشابه للنص الأول:

١ـ «فوعزتِكَ لَو انتَهرتَني ما بَرحْـتُ مـن بابـكَ، ولا كففتُ عن تملّقِكَ، لما أُلْهِمَ قلبي منَ المعرفـةِ بكرمـكَ وسعة رحمتِكَ».

٢ـ «إلى منْ يذهبُ العبدُ؟ إلاّ إلى مـولاهُ، وإلـى مـن يلتجئ المخلوقُ؟ إلاّ إلى خالقه».

٣ـ «إلهي لو قَرَنْتَني بالأَصفادِ، وَمَنعتَني سيبكَ من بينِ الأَشهادِ، ودَلَلْتَ على فضائِحي عُيُونَ العبادِ، وأَمَرْتَ بـي إلى النَّارِ، وَحُلتَ بيني وبينَ الأبرارِ مـا قَطَعْـتُ رجـائِي منكَ، وما صَرَفتُ تأمِيلِي للعفوِ عنكَ، ولا خـرج حُبُّـكَ مِنْ قَلبِي».

وهذه الفقرات الثلاث المتعاقبة فـي هـذا الـدعاء الشـريف من روائع أدعية الإمام علي بـن الحسـين عليه السلام، وهـي تتضـمن العزم والإصرار أولا، والإنقطاع إلى الله ثانياً، والرجاء والحـب ثالثاً، والمعرفة: رابعاً.

أما العزم: **«فوعزتِكَ لَو انتَهرتَني ما بَرحْتُ من بابكَ...»**

أما الانقطاع إلـى الله: **«إلـى مـن يـذهب العبـد إلاّ إلـى**

مولاه...» أما الرجاء والحب: «**لو قرنتني بالأصفاد ومنعتني سبيلك من بين الأشهاد... ما قطعت رجائي منك، ولا خرج حبك من قلبي ...**».

وأما المعرفة: (**لما أُلهِمَ قلبي من المعرفة بكرمك وسعة رحمتك**).

١٠ـ الحزن والبكاء

وبقدر ما يكون الإنسان، في رحلة العودة إلى الله، خائفاً مما يستقبله من العذاب والعقاب يكون حزيناً على ما فرط في ما تقدَّم من عمره، يحزن على ما سلف منه، ويخاف على مستقبله. ولا ينفك الحزن عن الخوف، وهو يبكي على هذا أو ذاك. تأملوا في هذه الفقرات من دعاء الأسحار للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«**وأعنِّي على البكاء على نفسي. فقد أفنيت بالتسويف والآمال عمري. وقد نزلتُ منزلةَ الآيسينَ من خيري.**

فمنْ يكونُ أسوأ حالا منّي، إنْ أنا نقلتُ على مثل

حالي إلى قبر لم أُمهِّـدُهُ لرقـدتي ولـم أفرشـهُ بالعمـلِ الصّالحِ لضجعتي.

ومالي لا أبكيَ؟ ولا أدري إلى ما يكـونُ مصـيري؟، أرى نفسي تخادعُني، وأيامي تخاتلُني، وقد خفقت عنـد رأسي أجنحةُ الموتِ.

فمالي لا أبكي؟ أبكي لخروج نفسي . أبكـي لضـيق لحدي. أبكي لسؤال منكر ونكير إياي، أبكي لخروجـي من قبري عُرياناً، ذليلا، حامِلا ثقلي على ظهـري. أنظـرُ مرةً عن يميني، وأخرى عن شمالي إذ الخلائقُ في شأن غيرِ شأني. لكلِّ إمرِئ منهم يومئـذ شـأن يعنيـه. وجـوه يومئذ سافرة، ضاحكة مستبشرة، ووجـوهٌ يومئـذ عليهـا غَبَرة، ترهقها قترةٌ وذلةٌ».

وفي هذا النص نقاط نحتاج إلى وقفات قصيرة:

يقول الإمام عليه السلام: «**وأعنّي على البكاء على نفسي**».

إن مواصلة الذنب والمعصية تكون سبباً لقساوة القلب، فإذا قسا القلب وتحجَّر انغلق على رحمة الله تعالى.

والحزن والبكاء، بعكس ذلك يرقّقان القلب. وإذا رقَّ القلب انفتح على رحمة الله.

وفي رحلة التوبة يجب على الإنسان أن يتخلص قبل كل شيء من قسوة القلب، ويرقق قلبه بالحزن والبكاء: «فقد أفنيت بالتسويفِ والآمالِ عمري».

وأخطر شيء على الإنسان «طول الأمل» فإنه يمدّ أمام الإنسان فسحة العمر، ويشغله بالآمال، ويغيّب عنه الموت، ويبعده عن عينه، وكل ذلك يتم في دائرة الوهم والأماني والآمال.

فإذا استقر هذا الوهم في نفس الإنسان بدأ الإنسان يسوّف في كل ما يتعلق بالآخرة، ويتعجل في كل ما يتعلق بالدنيا، فيفني حياته بالتسويف والآمال... وهكذا تخادعنا أنفسنا، وتخاتلنا أيامنا:

«وأرى نفسي تخادعني وأيامي تخاتلني».

إن نفس الإنسان تخدع صاحبها بهذا الوهم الكاذب، فتقرب له البعيد، وتبعّد له القريب، فتسلب صاحبها الرؤية

الصحيحة.

وأيّامه تخاتله، وتنقص من عمره، خلسة وختلة، من دون أن يشعر بهذا النقص، فتوهمه بالبقاء والدوام وتسلبه أجزاء من عمره حتّى تأتي عليها غيلة وخفية، دون أن يشعر بذلك. ويقع الإنسان فريسة لهذا الوهم من جانب، والمخاتلة والإغتيال من جانب آخر.

ومن عجب أنه، مع ذلك، يشعر بأجنحة الموت تخفق عند رأسه، كما يشعر الصيد الَّذي يلاحقه الصقر، يخفق على رأسه بأجنحته ويشعره، بدنو أجله، ومع ذلك لا يريد أن يفارق هذا الوهم: «**وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت**».

١١ـ الاسترحام

ليس في رحمة الله تعالى شح وبخل. وإنما هي تفيض من لدن الله تعالى فيضاً متصلا لا ينقطع، غير أن لرحمة الله تعالى منازل، فإذا وضع الإنسان نفسه فيها أصابته الرحمة، وإذا ابتعد الإنسان عنها لم تصبه الرحمة.

فالشأن كله ليس في نزول الرحمة، فإنَّها نازلة من عند الله بصورة متصلة لا تنقطع من غير شح ولا بخل، وإنما الشأن في منازلها. فإذا عرف الإنسان هذه المنازل ، ووضع نفسه فيها لا تُخْطِئه الرَّحمة.

ومن أهم منازل رحمة الله أن يعي العبد فقره إلى الله، وبؤسه وشقاءه وعجزه وضعفه، وغربته، وكربه، ووحشته وإنفراده.

فإذا وعى الإنسان هذه الحقيقة وعياً بيّنا وضع نفسه في منازل رحمة الله. وبقدر ما يزداد وعيه ببؤسه، وشقائه، وفقره، وضعفه، وكربته يزيد حظه من رحمة الله تعالى.

وكلّ الناس إلى الله تعالى فقراء، والله تعالى وحده هو الغني الحميد، إلاّ إنّ الناس يختلفون، بعضهم عن بعض، في مراتب وعيهم لفقرهم، وبؤسهم، وحاجتهم إلى الله.

فمن كان وعيه لفقره وحاجته إلى الله تعالى أبلغ كان حظه من رحمة الله تعالى أعظم.

وهذه معادلة ثابتة في علاقة الإنسان بالله تعالى، وهي من

أسرار هذا الدين، ومن يدرك هذه الحقيقة يدرك خيراً كثيراً في علاقته بالله تعالى. ولذلك نجد أن نصوص الأدعية المأثورة عن أهل البيت تعمّق لدى العبد حالة الإحساس والوعي بفقره وحاجته إلى الله في الدنيا، وبؤسه وكربته ووحشته ووحدته ساعة الموت وبعد الموت.

ووعي هذه الحاجة والبؤس من أعظم منازل رحمة الله تعالى.

تأملوا في هذه الفقرة من دعاء الأسحار للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«وارحمْ في هذه الدنيا غُربتي، وعندَ الموتِ كُربَتي، وفي القبرِ وحدَتي، وفي اللَّحدِ وحشتي، وإذا نشرتُ للحساب بين يديكَ ذُلَّ موقفي. واغفر لي ما خَفِيَ على الآدميّين من عملي، وأَدِمْ لي ما به سَتَرتَني، وارحمني صريعاً على الفراشِ تُقَلِّبُني أيدي أحِبَّتي، وتفضَّل عليّ ممدوداً على المغتسلِ يَقَلِّبُني صالحُ جيرَتي، وتحنَّن عليّ محمولا قد تناوَل الأقرباءُ أطرافَ جنازَتي، وجُدْ

عليّ منقولاً قد نزلتُ بكَ وحيداً في حُفرَتي، وارحَم في ذلكَ البيتِ الجديدِ غُربتي».

وأي بـؤس للإنسـان أكثـر مـن بؤسـه إذا حضـره المـوت، وأودع في حُفْرته ونُشِرَ للحساب بين يـدي الله تعـالى، ولـيس له عمل صالح يقدمه إليه تعالى؟ وأي بؤس للإنسان أكثر مـن أن ينزل به الموت، وهو لم يعـدّ نفسـه لهـذه الرحلـة الرهيبـة، ولم يتزود بالتقوى والعمل الصّالح؟

وأي بؤس للإنسان أبلغ من بؤسه إذا صرعه المـوت، وهـو فـي هـذه الحالـة مـن قلـة الـزّاد وتـراكم السّـيئات، ثـم حمـل أصـدقاؤه وأقربـاؤه جنازتـه ليودعـوه وحـده فـي حفرتـه، لا يرافقه فيها أحد إلاّ عمله الَّذي قدّمه بين يديه؟

١٢ـ الفرار إلى الله والاستعاذة به

وفي هذه الرحلة لابدّ من أن يفرّ الإنسان إلى الله {**فَفِـرُّوا**

إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (١).

ولابُدَّ أن تكون العودة فراراً إلى الله وحالة الفرار هي حالة الرعب والخوف وحالة اللجوء.

الرعب والخوف من ركام الذنوب والمعاصي، ومن الأهواء والفتن، واللجوء إلى الله من سخطه وغضبه إلى رحمته وفضله.

ففي أدعية أيام شهر رمضان:

«أللّهم إليك فررنا من ذنوبنا، فآونا تائبين، وتب علينا مستغفرين، وإغفر لنا متعوِّذين، واعِذْنا مستجيرين، وأجرنا مستسلمين، ولا تخذلنا راجين، وشفّعنا سائلين».

والفرار استعاذة: وإذا استعاذ العبد بالله تعالى أعاذه لا محالة، ولا يمكن أن يفر العبد إلى الله، عائداً إليه، عائذاً به، ثم لا يعيذه الله تعالى من ذنوبه وآثامه، ومن الأهواء والفتن، ومن غضبه وسخطه تعالى، إلاّ أن يكون الإنسان كاذباً في

(١) الذاريات: ٥٠.

ذلك.

والاستعاذة ليست من مقولة اللفظ وإنما هي حالة حقيقية قائمة في نفس الإنسان، وهي مزيج من الرعب والخوف ومن طلب اللجوء والحماية.

فإذا إستشعر الإنسان، في رحلة العودة إلى الله، هذه الحالة من الرعب والخوف وطلب اللجوء من الله أعاذه الله تعالى لا محالة، فإنَّ الله قوي عزيز، وإذا حمى الله عبداً وأعاذه، فلا ينال منه الشّيطان، ولا تنال منه الأهواء والفتن، وكان في حصن منيع من كل مكر وسوء. . إن شاء الله.

١٣ـ الاستغفار

وإذا كان معنى الفرار إلى الله، والاستعاذة به أن يحميه الله من الفتن والأهواء، ومن غضبه، فإن الاستغفار يعني أن يتجاوز عمّا سلف منه من التفريط ويعفو عنه.

ولابدّ للإنسان، في رحلة العودة إلى الله، من هذا وذاك معاً. لابدَّ له من أن يعفو الله عما سلف من ذنوبه وآثامه في الماضي وان يعيذه ويعصمه من سلطان الأهواء والفتن في

المستقبل.

ومن الذنوب ما يهتك الستر والعصمة عن الإنسان. ومن الذنوب ما ينزل النقم والبلاء، ومن الذنوب ما يغيِّر النعم ويسلبها، ومن الذنوب ما يحبس الدعاء.

فلابدَّ للإنسان، في رحلة العودة إلى الله، من أن يستغفر الله تعالى في المراحل الأولى من هذه الرحلة من جميع ذنوبه وآثامه، لينفتح له طريق العودة إلى الله تعالى.

جاء في الدعاء الذي علّمه أمير المؤمنين علي عليه السلام لكميل:

«**أللهمَّ اغفرْ ليَ الذنوبَ الَّتي تهتِكُ العصمَ. اللهمَّ اغفرْ ليَ الذنوبَ التي تُنزلُ النِّقَمَ. اللهمَّ اغفرْ لي الذنوبَ التي تغيِّرُ النعمَ. اللهمَّ اغفر ليَ الذنوبَ التي تحبِسُ الدعاءَ. اللهمَّ اغفر ليَ الذنوبَ الّتي تُنزِلُ البلاءَ. اللهمَّ اغفر لي كلَّ ذنب أذنبتهُ، وكلّ خطيئة أخطأتُها**».

١٤ـ الاضطرار إلى اللّه

ولا يتم للإنسان الاستغفار من ذنوبه إلاّ إذا أحَسَّ بالاضطرار إلى الله، ولم يجد لذنوبه غافراً سواه.

فإذا عرف ذنوبه وأقرّ بها، وشعر بالإثم والجريمة وأعترف بها، وعرف أن ليس لذنوبه غافر إلاّ الله، ولا لكسره جابر إلاّ الله، وانه مضطر إلى رحمة الله تعالى وعفوه اضطراراً صحَّ عزمه ـ عندئذ ـ في الاستغفار.

في المناجاة الأولى من المناجاة الخمسة عشرة. «**فوعزّتكَ ما أجدُ لذنوبي سواكَ غافراً، ولا أرى لكسري غيركَ جابراً، فإن طردتني من بابكَ فبمنْ ألوذُ؟ وإن رددتني عن جنابكَ فبمنْ أعوذُ؟**».

وهذا هو معنى الاضطرار إلى الله، وهو أن لا يجد الإنسان سبيلاً لعلاج مصيبته ومحنته إلا الله.

١٥ـ الندم

ولابد في هذه الرحلة من الندم، ولا يصح عزم الإنسان، ولا تصدق نيَّته في العودة إلى الله إلاّ إذا أحسّ بالندم على ما فرَّط في أمر الله.

جاء في المناجاة الأولى: «**إلهي، هلْ يرجعُ العبدُ الآبقُ**

إلاّ إلى مولاه؟ وهل يجيرهُ أحد من سخطه سواه؟ إلهي، إن كانَ الندمُ على الذَّنب توبةً فإني وعزتكَ من النّادمينَ، وإن كانَ الاستغفار من الخطيئةِ حِطّة فإنّي لكَ منَ المستغفرينَ».

(٢)

سبحانك

وهذا هو الشوط الثاني من رحلـة العـودة إلـى الله فـي آيـة (ذا النون)

صفات الجمال وصفات الجلال

لله تعالى نحوان من الصّفات هما: صفات الجمال وصفات الجلال:

وصـفات الجمـال هـي «صـفات الله الحسـنى الثبوتيـة» «الايجابيـة» كـالعلم، والسّـلطان، والحلـم، والعفـو، والجـود، والحكمة؛ وصفات الجلال هي صفات الله الحسنى الّتي تنفـي عن الله النقص، والعجز، والجهل، والشّح، والقصـور، والفقـر، والحاجة، والضّعف.

ولله تعالى الجمال المطلق والجلال المطلق. والإطـلاق هنـا في كل مـن الجـلال والجمـال بمعنـاه الحقيقـي. فهـو سـبحانه وتعالى، جميل ولا ينقصه من الجمال شيء واجد لكل كمـال وجمال، وهو سـبحانه جليـل، ولا ينقصـه مـن الجـلال شـيء،

ليس في ذاته نقص أو قصور، أو ضعف أو عجز أو فقر، وجهل. وصفات الجلال هي نفي القصور والعجز والجهل والفقر... عن ذات الله تعالى.

التسبيح لله

التسبيح هو تنزيه الله تعالى من كل نقص وعجز وجهل.

وتنزيه الله تعالى عن كل ما يتصوره الإنسان من عجز وفقر. فإن الذات الإلهية واجبة في مقابل «الإمكان»، وغنية في مقابل «الفقر»، ومطلقة في مقابل «المحدود»... بالضرورة.

وكل صفة تنافي هذا الوجوب والإطلاق والغنى منفيَّة عن الذات الإلهية بالضرورة. فهو سبحانه منزَّه عن كل نقص، وقصور، وعجز، وجهل، وفقر، وظلم... بالضرورة.

والتسبيح على نحوين، أولهما تسبيح وتنزيه في العقيدة، بمعنى الإعتقاد بتنزيه الله تعالى عن القصور والعجز، وثانيهما تسبيح في مجال السلوك والعلاقة بالله. بمعنى التعامل معه تعالى من منطلق الإيمان: بأن كل ما يفعله الإنسان من خير من الله، وكل ما يفعله من شر هو من نفسه. وكل جميل في

علاقة الإنسان بالله هو من الله، وكل قبيح وسوء في هذه العلاقة هو من الإنسان.

في دعاء الأسحار للإمام علي بن الحسين زين العابدين ﷺ: «أنت المحسن ونحن المسيئون، فتجاوز يا رب عن قبيح ما عندنا بجميل ما عندك». وقبيح ما عندنا هو السّيئات. وجميل ما عند الله هو العفو والمغفرة. وجميل ما عند الله يذهب بقبيح ما عندنا.

وهذا نحو من «التسبيح» في «العلاقة بالله» في مقابل التسبيح في «العقيدة».

الاعتراض المكتوم في العلاقة بالله

ولدى كثير من الناس نحو من الاعتراض المكتوم على الله. وهذا الاعتراض تارة في ما يصيب الإنسان من الإبتلاء بالنقص في الأنفس والأموال. وتارة في ما يرتكب الناس من الذنوب والمعاصي، فيعتقد الإنسان أن ما يصدر عنه من الذنوب والمعاصي لا يكون إلاّ بقضاء من الله وقدر.

وما كان بقضاء وقدر لا يكون تحت إختيار الإنسان

وأمره، فلا يكون الإنسان مسؤولا عنه، فإن الإنسان لا يكون مسؤولا إلاّ عما يكون تحت اختياره وأمره، وما كان بقضاء من الله وقدره يدخل في دائرة الحتميات ويخرج عن دائرة اختيار الإنسان.

وهاتان قضيتان تؤديان مجتمعين إلى سلب مسؤولية الإنسان عما يصدر عنه من الأفعال.

القضية الأولى: إن كل شيء، في هذا الكون، يوجد بقضاء وقدر، وأفعال الإنسان لا تشذ عن هذه القاعدة الفلسفية العامة. فهي إذن تدخل في دائرة الحتميات الكونية.

والقضية الثانية: إن كل ما يتم بقضاء وقدر، فهو بالضرورة لا يكون تحت اختيار الإنسان وإرادته وسلطانه.

والنتيجة أن الإنسان لا يتحمل أيَّة مسؤولية تجاه أفعاله، وهذه القضيّة تستبطن اعتراضاً مكتوماً على الله تعالى فيما يصيب الإنسان من الشّر في الدنيا والآخرة.

وإذا أمعنّا النظر، نجد أن القضية الأولى منهما صحيحة والقضية الثانية باطلة. وبذلك فلا ننتهي إلى النتيجة المذكورة.

وإليك تفصيل كل من هاتين القضيتين.

القضية الأولى:

مفاد القضية الأولى: أنّ كل ما يصدر عن الإنسان لابد من أن يتحقق بقضاء وقدر، وهذا أمر صحيح وقطعي، من دون ريب.

فإذا أحرق الإنسان مدينة أو دمرها في الحرب يتم ذلك بقضاء وقدر. وإذا أنشأ الإنسان مدينة أو عمَّرها فإن ذلك لا يكون إلاّ بقضاء وقدر. وإذا قتل إنساناً كان قتله بقضاء وقدر، وإذا أحياه، أَحْياه بقضاء وقدر. فقانون العلِّيَّة يحكم هذا الكون، و لا يخرج عن حكم هذا القانون شيء في هذا الكون، فلا تتم الحروب، ولا يتم البناء، ولا يتم القتل، ولا يتم الإحياء إلاّ بقانون العليّة.

وقانون العليّة يضمن دائماً حتمية المعلول عند وجود علة، وامتناع وجود المعلول من دون وجود علّته.

فالخراب، والعمران، والقتل، والإحياء، لا يمكن أن يتم أي منها من دون وجود علَّته. ويستحيل أن لا يتحقق مع

وجود علَّته. فكل من هذه الأمور يجب بوجود علَّته، ولا يتحقق من دون وجود علَّته.

والمعلول يجب عند وجود علته وهذا هو القضاء، وهو بمعنى حتمية الوجود. وكما تقتضي العلَّة حتمية المعلول كذلك تقتضي «تقدير» المعلول.

إِنَّ إشعال عود الثقاب يقتضي حتمية الحرارة، كما أنّ الانفجار الذَرّي يقتضي الحرارة، ولكن الانفجار النووي يقتضي الحرارة بـ «قدر معيَّن» وعود الثقاب يقتضي الحرارة بـ «مقدار آخر».

واختلاف المقدارين باختلاف حجم العلتين بموجب قانون المسانخة بين العِلّة والمعلول.

إذِنْ العِلَّة كما تقتضي وجود المعلول بصورة حتمية، كذلك تقتضي أن يكون المعلول من سنخها من حيث الكم والكيف. فلا يجوز أن تكون ثمرة شجرة التُفّاح الحنطة، ولا يجوز أن تكون التفاحة ثمرة لسنابل القمح. ولا يجوز أن يكون الإنجماد نتيجة لارتفاع درجة الحرارة ولا يجوز أن يكون الانصهار نتيجة لانخفاض درجة الحرارة... بموجب

قانون السّنخيّة بين العِلّة والمعلول.

وبموجب قانون السّنخيّة تختلف درجة الحرارة الحاصلة من إشعال عود ثقاب عن الحرارة الحاصلة من الانفجار النووي؛ لاختلاف العلة.

إذن يجب وجود المعلول عند وجود علته، وهذا هو «القضاء». ويجب أن يكون المعلول من سنخ علته، في الكم والكيف وهذا هو «القدر».

إن «حتمية» الحرارة بإشعال عود الثقاب «قضاء» و«درجة الحرارة» الّتي يبعثها عود الثقاب المشتعل «قدر».

والقضاء والقدر قانون عام في هذا الكون لا يشذ منه شيء، وكل شيء يجري في هذا الكون يجري بقضاء وقدر.

ولا يشذ عن ذلك ما يصدر عن الإنسان من عمل صالح أو قبيح فإنّ أفعال الإنسان كأي شيء في هذا الكون تتحقق وتجب بوجود علتها، ولا تتحقق من دون علتها. إذا وجدت العِلَّة وجد المعلول بالضرورة ومن سنخ العلة كمّاً وكيفاً. وهذه هي القضية الأولى الّتي قلنا عنها أنها قطعية لا شك فيها.

القضية الثانية

أما القضية الثانية فأمرها مختلف عن القضية الأولى اختلافاً كبيراً فأن إرادة الإنسان واختياره جزء من العلة التامّة الّتي تستوجب وجود المعلول، فلا يتحقق المعلول من دون إرادة الإنسان، ويجب بوجود الإرادة، إلاّ أن هذه الحتمية في جانب المعلول لا تنافي أن يكون هذا الفعل واقعاً تحت اختيار الإنسان ومسؤوليته، لموضع الإرادة والاختيار في جانب العلة.

صحيح أن الفعل، بعد أن يختاره الإنسان ويقدم عليه يجب إلاّ أن إرادة الإنسان واختياره لما كانت جزءاً من العلة التامّة الّتي تستوجب المعلول، وكان أمر الإرادة والاختيار بيد الإنسان، فلا محالة يكون الإنسان مختاراً في إيجاد الفعل وعدمه قبل العمل، ويكون الفعل تحت سلطان إرادته، ويكون الإنسان في النتيجة مسؤولا عن فعله.

لأنّ الإرادة جزء من العلة: وأمر الإرادة بيد الإنسان، وإذا كانت العلة تحت سلطان الإنسان كان المعلول كذلك بالضرورة.

وقد ورد في «دعاء كميل» في توجيه هذا الاعتراض الَّذي يساور النفس البشرية:

«إلهي ومولاي اجريتَ عليّ حكماً اتبعتُ فيه هوى نفسي، ولم أحترسْ فيهِ من تزيينِ عدوي، فغرَّني بما أهوى، وأسعدهُ على ذلك القضاءُ، فتجاوزتُ بما جرى عليَّ في ذلكَ بعضَ حدودكَ، وخالفتُ بعض أوامركَ. فلكَ الحمدُ عليَّ في جميع ذلك، ولا حُجةَ لي فيما جَرى عليَّ فيهِ قضاؤك، والزَمَني حُكمك وبلاؤكَ».

وذلك لأن هذا الَّذي جرى فيه القضاء على الإنسان من السّيئات والذنوب،وألزمه الله تعالى بحكمه وبلائه جرى بإرادة الإنسان واختياره ولا حجة للإنسان على الله فيما جرى فيه القضاء الإلهي، بناءً على ذلك.

فلم يَرَ الإنسان ولا يرى من الله غير الجميل «فلك الحمد عليّ في جميع ذلك».

ولن يكون، ولا يكون، للعبد حجَّة على الله في ما جرى عليه من قضاء الله وحكمه وبلائه: «ولا حجة لي فيما جرى عليَّ فيه قضاؤك».

يقول تعالى: {فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالِغةُ}[١].

ويقول تعالى: {لِئَلاَّ يَكُونَ للنَّاسِ على اللهِ حُجَّةُ}[٢].

التخفُّف من المسؤولية يتضمَّن اعتراضاً مكتوماً...

ولكن الإنسان يحاول أن يتخفف من المسؤولية في ما يرتكب من الذنوب والمعاصي، ويجعل من ابتلاء الله تعالى لعباده سبباً للتنصل من المسؤولية.

وهذا الإتجاه، من الرأي، يتضمن اعتراضاً مكتوماً على الله؛ حيث يرى الإنسان أن ابتلاءه بالذنوب والمعاصي أمر من ناحية الله تعالى.

وهذا الاعتراض المكتوم موجود بشكل أو بآخر عند كثير من الناس، ويتفاعل هذا الاعتراض في نفس الإنسان حتى يتشبّع ذهنه بالاعتراض على الله تعالى من حيث يريد أو لا يريد.

---

(١) الأنعام: ١٤٩.

(٢) النساء: ١٦٥.

ومن هذا المدخل يدخل الإنسان في علاقة سلبية مع الله تعالى، ويدخل الشّيطان في علاقة العبد بالله تعالى.

وأخطر ما يكون أمر الشّيطان وتدخّله في حياة الإنسان أن يدخل دائرة علاقته بالله تعالى فيفسد هذه العلاقة، ويسمها بالسلبية وعدم الرضا والاعتراض، ويجعل أساسها الاعتراض والشكّ و الريب.

إنّ الشّيطان قد يدخل في علاقة الإنسان بنفسه فيفسدها، وقد يدخل في علاقة الإنسان بإخوانه وأهله فيفسدها، وقد يدخل في علاقة الإنسان بنعم الله تعالى فيفسدها، وقد يدخل قلب الإنسان فيفسده، وقد يدخل عقل الإنسان فيفسده، إلاّ أن أخطر ما يكون فيه أمر الشّيطان تدخّله في علاقة الإنسان بالله، فإن قيمة الإنسان تتمثل في علاقته بالله تعالى فإذا أفسد الشّيطان عليه هذه العلاقة لا ينفعه بعد ذلك شيء.

و«الاعتراض» على الله أحسن المداخل الّتي يفضلها الشّيطان للنفوذ إلى علاقة الإنسان بربه.

العلاقة بالله في منهج التربية الإسلامية

وفي منهج التربية الإسلامية يتجرَّد «العبد» في «علاقته» بـ «الله» من كل إحساس وشعور بالاعتراض على الله، من الاعتراض المكتوم والسّافر.

وتقوم العلاقة على أساس الاعتراف لله تعالى بالذنب والظلم والتقصير، واتهام النفس، والإيمان بأن لله الحجة البالغة في كل سوء أو ظلم أو ذنب صدر من العبد. {قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ}(١).

{لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ}(٢).

إن العلاقة المتبادلة بين الله تعالى وعبده نازلة وصاعدة: نازلة من الله على عبده، وصاعدة من العبد إلى الله.

فكلٌّ ما يكون في حياة الإنسان من خير ورحمة وهدى ونور، ينزل من لدن الله تعالى على عبده في هذه العلاقة،

---

(١) الأنعام: ١٤٩.

(٢) النساء: ١٦٥.

وكلّ ما يكون في حياة الإنسان، من سوء وشر وظلم وإثم، يصعد من العبد إلى الله. ورحم الله العبد العارف الَّذي كان يقول: «**أللّهم إني أستغفرك من كل ما يصعد مني إليك وأحمدك على كل ما يتنزّل منك إليّ**».

تعميق الشّعور بالإثم والظلم في منهج التربية الإسلامية

والاعتراض على الله و«التنصل» من مسؤولية الإنسان عما يصدر عنه من الظّلم والإثم... يخدع الإنسان عن نفسه، ويحجبه عن ذنوبه وسيئاته، ويسلب عنه الشّعور بالظلم والإثم، وبالتالي يسلب عنه حالة الاعتراف بالذنب وحالة الاستغفار بين يدي الله، فإن الاعتراض على الله حجاب يحجب الإنسان عن «الاعتراف» و«الاستغفار»، وبالتالي يحجبه عن رحمة الله تعالى ومغفرته.

ومن بؤس الإنسان وشقائه أن يَحْرِمَ نفسه بنفسه من أن يتعرض لرحمة الله تعالى ومغفرته من باب من أوسع أبواب الرحمة والمغفرة الإلهية.

وبعكس ذلك، الشّعور بالظلم والذنب يُعدّ العبد

للاستغفار، ويضع الإنسان في واحد من أفضل مواضع رحمة الله.

فإن الإحساس بالذنب أساس الاعتراف بين يدي الله تعالى بالظلم والتقصير، والاعتراف بين يدي الله بالظلم أساس الاستغفار، والاستغفار من منازل رحمة الله وأبواب مغفرته وفضله.

فلابد للإنسان أن يشعر بمسؤوليته في الذنوب والمعاصي، حتى يعترف لله ـ صادقاً ـ بالظلم، ويقف بين يدي الله تعالى بـ «ذل المعصية»، ولابد من أن يعترف لله بذنوبه ومعاصيه وظلمه وإثمه، ويرفع إلى الله ذلّه وصغاره، حتّى يتمكن من أن يستغفر الله تعالى صادقاً.

والاستغفار، كما قلنا، من أبواب رحمة الله، ومنازل مغفرته وفضله، وما لم يستغفر الإنسان ربه، صادقاً، لن يفتح له هذا الباب .

وليس الاستغفار من «مقولة الكلام»، وإن كان الكلام يعبر عنه، وإنما هو من مقولة «الأحوال النفسية».

وما لم تتحقق حالة الاستغفار لدى الإنسان لـن يفـتح عليـه هذا الباب، ولن تنزل عليه الرحمة والمغفرة الإلهية الّتي تنـزل على الذين يضعون أنفسهم في منازل رحمة الله.

فهذه مجموعة معادلات قطعية لا يمكن الفصل بينها.

المراحل الأربعة في آية ذي النون

والتسبيح، في كلام العبد الصّالح ذي النون، في بطن الحوت، يتضمن معنى نفي الاعتراض على الله. فهو عليه السلام في بطن الحوت ينفي عن الله تعالى كل ظلم، وينزّهه.

وهذا التسبيح يتضمن نفي الاعتراض عن الله، وتنزيهه تعالى من أن يلحقه اعتراض، وهذه هي الفقرة الأولى من كلمة العبد الصّالح ذي النون «سبحانك».

وبعدها تأتي مباشرة فقرة (الاعتراف) بالذنب والظّلم: {إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}. ويأتي الاعتراف والإقرار بالظلم بين يدي الله تعالى نتيجة لنفي الاعتراض على الله، وهذه هي الفقرة الثانية من كلام ذي النون في بطن الحوت {إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}.

والفقرة الثالثة، من الآية الكريمة بعد الفقرتين السّابقتين، هي {فاستَجَبْنا له ونَجَّيْناهُ من الغَمِّ}، وتأتي نتيجة للفقرتين السّابقتين، فإن الاعتراف بالظلم في كلام العبد

الصّالح «استغفار»، والاستغفار من منازل رحمة الله تعالى كما ذكرنا.

ولما وضع العبد الصّالح ذو النون نفسه في موضع الاعتراف والاستغفار نزلت عليه الرحمة والمغفرة من لدن الله تعالى مباشرة **{فاستَجَبْنا له ونَجَّيْناهُ من الغَمِّ}**. وهذه هي الفقرة الثالثة في الآية الكريمة، والفقرة الرابعة هي فقرة «التعميم»، **{وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}**.

فإن الَّذي حدث لذي النون عليه السلام في بطن الحوت سُنّةَ وقانون، وسنن الله تعالى لن تخص عبداً دون عبد، وكل من تعرَّض لما تعرَّض له ذو النون عليه السلام من الاعتراف بالظلم والاستغفار ينزل عليه من الرحمة والمغفرة ما نزل على هذا العبد الصّالح في بطن الحوت.

الاعتراض والاعتراف

«الاعتراض» و«الاعتراف» مقولتان متقابلتان، ولهما أثران متعاكسان على الإنسان، فالاعتراض يحجب الإنسان عن

رحمة الله، والاعتراف يضع الإنسان في منازل هذه الرَّحمة .

والعلاقة بين «الاعتراض» والحجب عن الرحمة، وكذلك العلاقة بين «الاعتراف» والنزول في منازل الرحمة ... علاقة تكوينية بموجب سنن الله تعالى، فان رحمة الله تنزل على موضع «الفقر» و«الحاجة» والبؤس، والاعتراف إعلان للفقر والحاجة والبؤس.

وإذا وضع الإنسان نفسه في موضع الفقر إلى الله والحاجة إلى مغفرة الله تعالى استنزل رحمة الله عزّ وجلّ.

و«الاعتراض» استكبار، وغرور، وتنصّل عن المسؤولية وعُجْب، ولا ينزل شيء من رحمة الله على مواضع الغرور والعُجْب والاستكبار.

وكما تنحدر مياه الأمطار إلى المواضع الواطئة من الأرض، ولا تستقر على القمم المرتفعة الناتئة من الأرض، كذلك إذا أراد الإنسان أن يستنزل رحمة الله كان عليه أن يضع نفسه في المواضع التي تستنزل رحمة الله، لا موضع

الاستكبار والغرور والعجب.

ورحمة الله وعفوه ومغفرته لا تنزل على الذنوب والمعاصي، فإن الذنوب والمعاصي تحجب صاحبها عن رحمة الله، ولا تضعه في مواضع نزول الرحمة، وإنّما تنزل الرحمة على حالة الإحساس بالذنب، والاعتراف بالظلم «وليس على الذنب والظّلم»، فقد يذنب الإنسان ويظلم نفسه، فيستخف بذنبه، ويتنصل عن مسؤوليته، ويستهين به، فلا يزيده ذنبه إلاّ بُعداً عن رحمة الله تعالى.

وقد يذنب فيسوؤه ذلك ويشعره بالحياء والخجل بين يدي الله، ويعمِّق في نفسه الاعتراف بالظلم، فيلوذ بالله ويستغفره، ويتضرع إليه فيستنزل رحمته، فتنزل عليه رحمته ومغفرته وفضله، كما نزلت على العبد الصّالح ذي النون عليه السلام، الذي قال: **{إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}**.

(٣)

إني كنت من الظالمين

وهذا هو الشوط الثالث من رحلة ذي النون إلى الله.

في هذا النصّ يعترف العبد الصّالح يونس عليه السلام بالظلم {إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، وليس في النص استغفار، والاعتراف بالذنب يستبطن الاستغفار، عن الإمام علي عليه السلام «الندم استغفار، والإقرار اعتذار»، وعن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام «المقر بالذنب تائب»(١).

و«الاعتراف» بحد ذاته من منازل رحمة الله، وهنا، في هذا النص، يضع العبد الصّالح يونس عليه السلام نفسه في موضع رحمة الله؛ حيث يعترف بالظلم بين يديه تعالى، فيستنزل بذلك رحمته عز شأنه.

ولابد لهذا الإجمال من تفصيل:

---

(١) مستدرك الوسائل ٢: ٣٤٥.

الأحوال

للإنسان مع الله تعالى علاقة ما وراء «الأعمال» و«الأقوال» وهذه العلاقة هي علاقة «الأحوال»، وهي الحالات النفسيّة الّتي توجّه الإنسان إلى الأفعال والأقوال.

الأحوال منازل رحمة اللّه

والأحوال منازل رحمة الله، فإن رحمة الله تعالى تنزل على «أحوال» الإنسان من خشوع، واضطرار، وإقبال، وخوف، وحبّ، وشوق...

والعلاقة بين «الحال» و«رحمة الله تعالى» هي علاقة السّببية والعِلّية[1].

فإذا رقَّ القلب نزلت رحمة الله على العبد، كما ينحدر الماء إلى الأرض الواطئة، وكما تجتذب التربة الهشّة الماء... كذلك القلب الَّذي يرقّ يجتذب رحمة الله بالقانون نفسه، إلاّ

---

(١) وليس معنى ذلك أن نفصل نزول رحمة الله تعالى عن إرادته ومشيئته عز وجل، ولذلك بيان لا يسعه المقام.

أن العلاقـة بـين الأرض الواطئـة وانحـدار المـاء علاقـة ماديـة محسوسـة ويسـتنزله وفـق قـانون الجاذبيّـة، والعلاقـة بـين رقّـة القلب ونزول رحمة الله علاقة غير ماديـة وغيـر محسوسـة، مـا وراء الفيزياء.

إلاّ أنَّ العلاقة بين رقّة القلب ونـزول رحمـة الله تبقـى هـي من نوع العلاقة السّببية.

قيمة العبادات في الأحوال:

ومـن دون أن ننـتقص مـن قيمـة الأفعـال والأقـوال فـي العبادات، في الجزاء والأجر، نقول إن الأحـوال هـي الأسـاس في تقييم الأفعال والأقوال. وقيمة الفعل والقول فـي العبـادات تُقدَّر بمقدار ما يحمل كل منهما من الحال. وكلّما كـان حـظّ الفعـل والقـول فـي العبـادات مـن «الحـال» أكثـر كانـت تلـك العبادة أقرب إلى مرضاة الله، وأجزل ثواباً عنده.

فثـواب الصّـلاة وقيمتهـا، عنـد الله، بقـدر مـا يستحضـر المُصَلِّي ذُلّ الوقوف بين يدي الله، وبقدر ما يخشع في صـلاته له، وكلما كان حظّ العبد في الصّلاة من الخشـوع والـذل بـين

يدي الله والذكر أكثر، كانت صلاته أقرب إلى الله، وأبلغ في استنزال رحمته، وأجزل ثواباً عنده.

يقول تعالى في علاقة الصلاة بحال الذكر: **(أقم الصلاة لذكري)**، والذكر هو الحال الذي يريده الله من عباده في أفعال الصلاة وأقوالها.

وقيمة التوبة في العزم على العودة إلى الله، والكف عن معصية الله، والإستحياء منه والندم. وليست التوبة في حقيقتها إلاّ هذا العزم، والاستحياء منه تعالى والندم. وهي حالات يحبها الله تعالى لعبده، وتستنزل رحمته، وقيمة التوبة عند الله تقدَّر بها.

روي عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «إن التوبة ندم بالقلب، واستغفارٌ باللسانِ، وتركُ الجوارح، وإضمارٌ أن لا يعودَ» (١).

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الاستغفار درجة العليين،

---

(١) غُرَرُ الحِكَم ودُرَر الكَلِم، للآمدي ١: ١١٠، الحكمة رقم ٢٠٩٤.

وهو إسم واقع على ستة معان:

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة ضيّعتها فتؤدي حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الَّذي نبت على السُّحْتِ فتذيبه بالأحزان، حتى تلصق الجلد بالعظم.

والسّادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية. فعند ذلك تقول... استغفر الله(١).

وقيمة الدعاء: في حالتي الفقر والاضطرار إلى الله وليس شي يُشْعر الإنسان بفقره واضطراره إلى الله كالدعاء، كما أن الدعاء ينبع من الإحساس بهما، وهما يستنزلان رحمة الله، ومن أقصر السبل إلى رحمة الله.

وآية سورة النمل **{أمَّنْ يُجيبُ المُضْطَرَ إذا دَعَاهُ**

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٠ ـ ٥٦.

ويكْشِفُ السّوء }(١) إشارة إلى ذلك، فإن حالة «الاضطرار» إلى الله هي الّتي تستنزل «الاستجابة» من عنده، إذا وعى العبد اضطراره وفقره إلى الله تعالى.

وقيمة الاستعاذة في اللجوء إلى الله، واللّواذ به، ومن دونهما تفرغ الاستعاذة من كل محتواها، ولا يبقى منها إلاّ اللفظ.

وقيمة الذكر في التذكر (الذُّكر)، ولولا إنّ الذكر يذّكر الإنسان بالله لا تبقى قيمة له.

وقيمة الزّكاة في حالة «الإنفاق مما يحبّه الإنسان» يقول تعالى: **{لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ }**(٢).

وفي حالة إيثار الإنسان لغيره على نفسه، مع وجود الحاجة والخصاصة، يقول تعالى:

---

(١) النمل: ٦٢.

(٢) آل عمران: ٩٢.

{يُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ ولو كانَ بِهِمْ خَصَاصةٌ}(١).

وفي حالة «الإنفاق حُباً لله»، يقول تعالى:

{ويُطعِمُونَ الطَّعامَ على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وأسيراً}(٢).

هذه حالات يحبها الله تعالى لعبده، وهي الّتي تستنزل رحمته، وفيها قيمة الزّكاة والإنفاق.

وقيمة الصّوم في «الكف» و«الجوع» والكف سبب والجوع نتيجة.

وقيمة التقوى، في الطاعة والتسليم والعبودية لله.

وقيمة العبادات على نحو العموم في ابتغاء وجه الله في الذكر.

وقيمة الإبتلاءات الّتي يبتلي الله تعالى بها عباده في الصّبر والتضرع، فإن ابتلاء الله يتطلب من الإنسان الصّبر. والصّبر

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) الإنسان: ٨.

حالـة يحبهـا الله تعـالى لعبـاده يقـول ـ تقـدس أسـماؤه ـ:

{وَلَنَبْلُونَّكُمْ بشيء مِـنَ الخَـوفِ والجُـوعِ ونَقْـص مـن الأَموالِ والأَنفُس والثَّمَراتِ وبَشِّـرِ الصَّـابرينَ الَّـذِينَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُّصيبَةٌ قَالوا إنَّا لله وإنَّا إليهِ راجعـونَ * أولِئـكَ عَلَـيْهم صَـلَوَاتٌ مِـنْ رَبِّهِـمْ وَرَحْمَـةٌ وأُولئـكَ هُـمُ الْمُهتدونَ} (١).

وفي الابتلاء يتضرع الإنسان إلى الله تعالى.

يقول تعالى:

{وَمَا أَرسَلْنا فـي قَريَـة مـن نَّبـيٍّ إلاّ أخَـذْنا أهلَهـا بِالبَأسَاءِ والضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} (٢).

والتضرع إلى الله حالـة يحبهـا الله تعـالى وتسـتنزل رحمتـه وفضله.

وعلى العموم: قيمة العبادات في مـا تتضـمنه ومـا تسـتنبطه

---

(١) البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٢) الأعراف: ٩٤.

من «الحال».

وهذه الأحوال هي منازل رحمة الله.

العلاقة التبادلية بين العبادات والأحوال

والعلاقة بين العبادات والأحـوال علاقـة تبادليـة (جدليّـة)، وهي علاقة معروفة ورائجة في الثقافة الإسلامية، فـإنّ الـدعاء يحسّس الإنسان بفقره وحاجته واضطراره إلى الله، من جانب، ويلجئه هذا الإحساس، من جانب آخر، إلى الدعاء.

اقتران الحال بالوعي

والأحوال تقترن، عـادة وغالبـاً، بـالوعي، فالحاجـة والفقـر والاضطرار إلى الله لن يكون أي منها في حد نفسـه، حـالا إلاّ عندما يعي الإنسـان فقـره، فـأِنّ الإنسـان لا يخلـو مـن الحاجـة والفقـر والاضـطرار إلـى الله، ولا يختلـف النـاس فـي الفقـر والاضطرار إلى الله، وإنما يختلفون في وعي الفقر والاضطرار وفي درجات هذا الوعي.

فكلما كان الإنسان أكثـر وعيـاً لحاجتـه وفقـره واضـطراره إلى الله يكون أقرب إلى رحمـة الله، وتكـون الرحمـة الإلهيـة

أسرع إليه.

وليس معنى ذلك إن الرحمة الإلهية لا تنزل إلاّ على موضع الوعي، فإنها تنزل على مواضع الفقر والحاجة والاضطرار من دون وعي، ومن دون سؤال، بل من دون معرفة الله تعالى، أيضاً.

وقد ورد في دعاء شهر رجب: «**يا منْ يعطي منْ سألهُ، يا منْ يعطي من لم يسألهُ، ومنْ لمْ يعرفهُ تحنناً منهُ**».

ولكن شتّان بين نزول الرحمة على الفقر المقترن بالوعي ونزولها على الحاجة والفقر غير المقترن بالوعي، وارتكاب المعصية ليس من منازل رحمة الله بل من موجبات مقت الله وغضبه، ولكن الاعتراف بالذنب من منازل رحمة الله كما ذكرنا.

و«الاعتراف بالذنب» هو وعي قبح عمل الإنسان في معصية الله تعالى. وهذا الوعي هو مصدر الإحساس بـ«الندم من الفعل» و«الخجل من الله»، وبقدر وعي الإنسان لقبح فعله في معصية الله تعالى يكون إحساسه بالندم من فعله وبالخجل

من الله تعالى.

و «الندم» و«الخجل» من منازل رحمة الله. وحقارة الإنسان وصغاره تجاه الله تعالى ليس في حد نفسه حالا، ولا من منازل رحمة الله، ولكن إحساس الإنسان بالحقارة والدونية والصّغار تجاه الله تعالى، وبين يدي الله من منازل رحمة الله.

فإذا أحسّ الإنسان بهذه الحقارة والضّعة والدونية.. ذلّ بين يدي الله، وتواضع له تعالى.

وهذا الذل والتواضع من منازل رحمة الله، ولا يختلف الناس في الحقارة والضّعة والدونية تجاه الله تعالى، وإنما يختلف الناس في وعي هذه الحقارة والدونية، وفي درجات هذا الوعي.

ويستنزل الناس من رحمة الله بقدر وعيهم لضعتهم وحقارتهم بين يديه. والتمتع بنعم الله تعالى لا يستنزل رحمة الله تعالى، ولكن يستنزلها وعي الإنسان لنعم الله، وعلى قدر الوعي يشكر الإنسان ربه سبحانه، وعلى قدر هذا الشّكر ينزل الله تعالى رحمته على عبده.

يقول تعالى: **{لئن شكرتُمْ لأَزيدنَّكُم}**.

وهكذا يقترِن سائر الأحوال بـ (الوعي) فالحبُّ وعي، والإيثار وعي، والشّوق وعي، والأنس بالله وعي، والصّبر وعي، والتضرع وعي.

كسب الحال والمحافظة عليها

وهذه الأحوال كثيرة كالذكر والعبودية، والطاعة، والتسليم، والرضا، والتواضع لله، والمسكنة، والتذلّل، والشّكر والفقر، والتضرع، والإجابة (التلبية)، والحب، والشّوق، والأنس، والثقة، والتوكل وغير ذلك.

وهذه الحالات هي منازل رحمة الله تعالى في حياة الإنسان. وعلى الإنسان أن: يكسب هذه الحالات أولا. ويحافظ عليها ثانياً. وينمِّيها ثالثاً. ويستثمرها رابعاً،

ولكل ذلك أصول ومناهج وقانون في منهج التربية والتزكية في الإسلام. وإذا عرفنا أن هذه الحالات منازل رحمة الله تعالى في حياة الإنسان نعرف أنَّه لا ينال الإنسان من رحمة الله إلاّ بقدر ما يكسب من هذه الأحوال.

إذَنْ من الضّروري أن يعرف الإنسان كيف يكسب هذه الأحوال، ومن رَزَقَهُ الله (الحال) فقد أعطاه كل شيء، ومن حُرِمَ منها لم ينفعه شيء.

وما أجمل تعبير الشّاعر الحكيم الرومي، وترجمته:

ـ لا تطلب الماء، ولكن اطلب الظّمأ

ـ حتّى يتفجر الماء، من كل جوانبك

فإن من رزقه الله الظّمأ وهي حالة الاضطرار إلى الله والانقطاع إلى الله في طلب الماء، يفجَّر الله تعالى له الماء من كل جوانبه، كما يقول هذا الحكيم.

ولا تقل قيمة المحافظة على الحال عن كسبها، فقد يكسب الإنسان الحال بمشقة وعناء، ويضيعه ويفرّط بها فيما يضيّع من مواهب الله تعالى وأفضاله.

فلابدّ أن يحسّ الإنسان، ثانياً، بضرورة المحافظة على هذه الأحوال.

ولابدّ، ثالثاً، من أن ينمِّي الإنسان هذه الأحوال... فإن الأحوال لا تركد على حال، فإمّا أن تنمو وتقوى أو تذبل

وتضعف.

ولابدّ، رابعاً، من استثمار هذه الأحوال فأنَّ، هذه الأحوال، كما ذكرنا، منازل رحمة الله، فإذا رزق الله تعالى عبداً من عباده بعض هذه المنازل، كان عليه أن يستثمره سريعاً بالدعاء والإلحاح في الدعاء والذكر والعبادة.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله 2 : «اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة»(١).

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام قال: «**إذا رقّ أحدكم فليدعُ، فإن القلب لا يرق حتى يخلص**»(٢).

وعن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام : «**إذا اقشعر جلدك، ودمعت عيناك فدونك دونك فقد قصد**

---

(١) بحار الأنوار ٩٣: ٣١٣.

(٢) وسائل الشّيعة ٤: ١١٢٠، ٥: ٨٧٦.

قصدك»(١).

«**إن أقرب ما يكون العبد، من الرب عزّ وجلّ وهو ساجد باك**»(٢).

المُعدات والعوامل الّتي تكسب الإنسان الحال

والعوامل والمعدات الّتي تكسب الإنسان الحال كثيرة، لا يسعنا استعراضها واستيعابها ودراستها في هذا المقال.

ومن هذه المعدات «الزّمان» و«المكان» فإنّ لهما دوراً في تثبيت الحال وتعميقها.

الزّمان مثل الأسحار: **{وبالأَسحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}**(٣).

{والمُسْتَغْفِرينَ بالأَسحارِ}(٤).

وليلة القدر وليلة الجمعة ويوم عرفة وفي شهر رجب

---

(١) وسائل الشيعة ٤: ١١٤١، ٢: ٨٧٦٢.

(٢) وسائل الشّيعة ٤: ١١٢٢، ٨٧٧١.

(٣) الذاريات: ١٨.

(٤) آل عمران: ١٧.

تصب رحمة الله صبا، على الأرض وشهر رمضان ربيع الحال.

والمكان مثل وادي عرفة والمساجد **{في بُيُوت أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُهُ}**(١)، وأعظم من ذلك كله المسجد الحرام ومسجد رسول الله 2 ، وحرم أهل البيت (ع) في البقيع وسائر المواضع، وبشكل خاص الحائر الحسيني.

وعن المسجد الأقصى **{سُبحانَ الَّذي أَسرى بعبدِهِ ليلا من المَسْجدِ الحرامِ إِلى المَسْجدِ الأَقصى الَّذي بَاركنا حولَهُ}**(٢) ومن هذه البركات التي يخبرنا عنها الله سبحانه وتعالى حول المسجد الاقصى تحصيل الأحوال.

ومجالس عزاء الحسين عليه السلام من المواضع الّتي تنزل عليها رحمة الله تعالى، فإن هذه المجالس ترقق القلوب، وتعطف النافرة إلى الله عزّ وجلّ.

ومن منازل رحمة الله الابتلاء والشدّة في حياة الإنسان،

---

(١) الذاريات: ٣٦.

(٢) الإسراء: ١.

فإنها تعد الإنسان للتضرع إلى الله، والتضرع إلى الله من منـازل رحمة الله.

يقول تعالى: **{وما أَرسلنا في قَريـة مـن نَّبـيٍّ إلاَّ أَخَـذْنا أَهلَها بالبأساءِ والضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضرَّعُونَ}**(١).

والذكر والحمد والاستغفار والصّلاة والسّجود بين يَدَيْ الله، والصّلاة على محمد وآل محمد، تكسب الإنسان الإقبال على الله، وهو حال من منازل الرحمة.

روي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام: «**أن رجلا دخل المسجد، فصلى ركعتين، ثـم سـأل الله عـزّ وجلّ، فقال رسول الله 2 عجل العبد ربه، وجاء آخـر، فصلى ركعتين ثم أثنى على الله عزّ وجلّ، وصلى علـى النبيّ، فقال رسول الله 2 : سَلْ تُعْطَ**(٢).

ومن الأمور الّتي تكسب «حال» الإقبال على الله ورقة

---

(١) الأعراف: ٩٤.

(٢) وسائل الشّيعة ٤: ١١٢٦، ٧٨٦.

القلب.. الإنكسار الظّلامة، فإن الإنسان إذا تعرض للظلم، لم يحجب دعاءه عن الله شيء.

ولا يحجب شيء دعاء المظلوم عن الله تعالى.

عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قال: «**اغتنموا الدعاء عند خمسة مواطن: عند قراءة القرآن، وعند الأذان، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الصّفين للشهادة، وعند دعوة المظلوم، فإنها ليس لها حجاب دون العرش**»[(١)].

وقد يكون الإنفراد والوحدة من عوامل كسب الحال. كما في صلاة الليل، وقد يكون الاجتماع، كما في صلاة الجمعة والجماعة والحج، ولكل من «الوحدة» و«الاجتماع» تأثير خاص في أحوال الإنسان. فمن الأحوال ما لا يتحقق إلاّ بالإنفراد والوحدة، ومن الأحوال ما لا يتحقق إلاّ بالاجتماع... وطبيعي أنَّا نقصد بالاجتماع الاجتماع الموجّه كاجتماعات المؤمنين ومجالسهم، ومثل الحج وصلاة الجماعة وسائر

---

(١) وسائل الشّيعة ٤: ١١١٥، ٨٧٤٢.

الاجتماعات الموجهة.

ولكل من «الوحدة» و«الاجتماع» ما يخصه من الحال: فمنها ما لا يمكن تحقيقها إلاّ في جو الإنفراد والوحدة، ومنها ما لا يمكن تحقيقها إلاّ في جو الاجتماع.

ولابد للإنسان في تعامله مع الله من هذا و ذاك معاً.

ولذلك نجد أن منهج التربية والتزكية في الإسلام يوفّر الفرصة «المادية» للإنسان لهذا أو ذاك معاً.

ومن عوامل كسب الحال قراءة «القرآن» و«الصّوم» و«العمل الصّالح»، فإن العمل الصّالح يعدّ الإنسان للإقبال على الله.

ومن عوامل الحال الجهد في سبيل الله، فإن أي جهد يبذله الإنسان في سبيل الله يكسبه حال الإقبال عليه.

وهناك طائفة من العوائق الّتي تعيق الحال وتبطئ ونموِّه.

من هذه العوائق الاستغراق في الحياة الدنيا، حتّى في الحلال منها، والانشغال بها حتّى في دائرة الحلال.

ومن هذه العوائق: الذنوب والمعاصي، و حبُّ الدنيا، ومنه

مصاحبة الفسَّاق، ومنها اختلاط الرجال بالنساء.

اعتراف العبد الصّالح بالظلم

ونعود، مرة أخرى، إلى اعتراف العبد الصّالح ذي النون بالظلم. فإنّ النص يقتصر على الاعتراف بالظلم، ولا نجد في هذا النص ذكراً للاستغفار بعد الاعتراف، وكأنما الاعتراف يتضمن الاستغفار أو يكفي عنه ، ويستنزل بنفسه رحمة الله تعالى على عبده.

و«الاعتراف بالظلم» بين يدي الله ليس من أسباب تعقيد النفس بل الأمر بالعكس فإن الاعتراف بالظلم يَحِلُّ العقد النفسية الّتي تستتبع الذنب.

والذنوب، من دون الاعتراف والندم والخجل تتحوّل إلى صدأ و«دَرَن» في النفوس، وتتحول إلى (طبع) و(ختم) على القلوب وقسوة لها.

فإذا اعترف الإنسان بذنوبه وظلمه بين يدي الله، أزال هذا الاعتراف الآثارَ السّلبية الّتي تتركها الذنوب في نفس

الإنسان، ورَقَّ قلبه، وزالت عنه القسوة والطبع والختم.

فإنّ الذنوب تتحول إلى آثار سلبية ومخربة وعقد في نفس الإنسان إذا تجاهلها صاحبها واستهان بها.

أما إذا اعترف صاحبها بقبح ما ارتكبه من ظلم وذنب، واستشعر هذا القبح واعترف به، تحول الذنب في نفسه إلى حالة من «الندم من فعله» و«الخجل من الله»، فإن الذنوب عندئذ تتحول إلى حسنات. **{فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سيئاتهم حَسَنات وكانَ اللهُ غفُوراً رَحِيماً}**(١).

استغفار واعتذار

وفي نهاية هذه الجولة من رحلة العودة إلى الله تعالى، مع العبد الصالح يونس «ذي النون»عليه السلام لابد لنا أن نقول أنّ نبي الله «يونس»، ذا النون، نبي معصوم، عصمه الله من كل ذنب ـ من الصغائر والكبائر ـ إلا ما قد يقع من أولياء الله الصالحين

(١) الفرقان: ٧٠.

وعباده الـذين اصـطفاهم تعـالى لنفسـه مـن «خـلاف الأولـى» و«خلاف الأجدر»، وما كان ينبغي لهم ان يتجنبـوه ولا ينبغـي لهم ان يفعلوه فيلجؤون إلى الله تعالى بالاستغفار والاعتذار.

ونحن نستغفر الله، ونعتذر إلى العبـد الصـالح نبـي الله، ذي النون عليه السلام، إذا كان في تحليلنا لهذه الآيـة الكريمـة مـا يـوحي بالمسّ من عصمته وموقعه الذي وضعه الله تعالى فيه.

وسلام الله على ذي النـون، ورزقنـا اللهُ هديَـه، ووعيـه، فـي الدنيا، وشفاعته في الآخرة.

محمد مهدي الآصفي

الفهرس

١- لا إله إلاّ أنت

٢- سبحانك

٣- إني كنت من الظالمين